أدلينا

رواية

فاطمة الزهراء بدوي



رواية: أديلينا

تأليف: فاطمة الزهراء بدوي

الناشر: أدباء ٢٠٠٠

الطبعة الأولى ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٧٩٤٤\٢٠١٨

تصحيح لغوي: نسرين محمد يوسف

إخراج فني: شادي الكردي

تصميم الغلاف: محمد علي

المدير العام : منة عامر

دار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع

نشر – توزيع

0020/01020812429 –01099654718



أديلينا



عندما تتحدث اللوحات بروحِها

الأهداء

غاليتي الغائبة الحاضرة .. أعلم أنكِ تحيطين علما بأحوالي فقد جئتِني مُهنئة بهذه الرواية في منامي ..

أمي الحبيبة مها يا من أشعر أنكِ لازلتِ تدعمينني بدعائك .. تمنيت لو أنك حاضرة ..

أبي الحبيب أحمد بدوي دمت داعما، ولكم أتمنى أن تكون فخورا ..

زوجي الغالي حسام .. دمت حبيبي و سندي يا من لو جُبت العالم لما وجدت مثلك ..

أخي الحبيب محمد .. أنت من حضر ولادة الفكرة .. سرت معي خطوة بخطوة لتكتمل ..

منة عامر أختي وصديقتي أنتِ سبب ولادة و اختمار فكرة تحويلها لنسخة ورقية فلكِ كل الشكر ..

كابتن أحمد ابراهيم .. دمت مشجعا و داعما .. دمت أخا.. شجعتني لاتخذ خطوة النشر الورقي المنفرد

رامي فخري (رامي و يجعله عامر) أنت سبب اختلاف هذه النسخة عن مثيلتها الالكترونية ، انت من لام عليّ تأخر خطوة النشر الورقي المنفرد.. أدامك الله مشجعا داعما ناصحا ..

وسام عبدالوهاب(وزة) كنتِ معي خطوة بخطوة .. فصل بفصل، ناصحة وموجهة وناقدة لولاكِ ربما لما انتهيت في الوقت المناسب .. أدامكِ الله أختا و نعمة ..

لكل من وثق في قلمي، شجعني و آمن بيّ أكثر مما فعلت بنفسي ..

إليكم جميعا أهدي ابنتي بكرية الورق أديلينا، واتمنى ان أكون على قدر الثقة ..

فاطمة الزهراء

أديلينا

١-بورتريه

"وهـــــذه أيتهـــا الســـيدات والســـادة القطعـــة الأخـــيرة لمـــزاد الليلة،لوحـــةتعود إلى مـــا يقـــرب مـــن ثلاثمائـــة عـــام مضـــت؛ حســـب تقـــدير خبرائنا..

اللوحـــة تمثـــل بورتريـــه لســـيدة مـــن الطبقـــة الراقيـــة في تلـــك الفـــترة الزمنيـــة، وصـــاحبتها"دورثي كاست"حســـبما وجـــد في الســـجلات، وغـــير معـــروف عـــلى وجـــه الدقـــة التـــاريخ الـــذي رُسِـــمت فيـــه، اللوحـــة تحمـــل توقيع"تومـــاس هدســـون" أشـــهر رســـامي البورتريـــه في "لندن"خاصـــة في الفـــترة مـــن (١٧٤٥-١٧٥٥) للمـــيلاد، يبـــدو وذلـــك حســـب رأي خبرائنـــا أيضـــا ، أنهـــا لوحـــة مـــن بدايات"هدســـون"، وربمـــا قبـــل أن يتتلمـــذ عـــلى يـــد"جوناثان ريتشاردســـون"...لكن هـــذا لا يمنـــع كونهـــا قطعـــة فنيـــة أثرية قيمة؛ لذا نفتتح المزايدة لراغبي اقتنائها ...".

غـــادرت المـــزاد حـــاملًا غنيمتـــي بعـــد أن دفعـــت فيهـــا مبلغًـــا لا بـــأس بـــه، لكننـــي لم أهـــتم كثـــيراً لأمـــر النقـــود قـــدر اهتمامـــي بالحصـــول عـــلى تلـــك اللوحـــة، شيء مـــا فيهـــا جـــذبني إليهـــ ا، شيء مـــا ألـــح عـــليّ ألا أغـــادر دونهـــا .

كـــان بورتريـــه لفتـــاة شـــابة ذات وجـــه بيضـــاوي مضيـــء،رقبة طويلـــة نســـبيًا وشـــعر داكـــن زادهـــا إشراقًـــا، ملامحهـــا دقيقـــة،أنف صـــغير، فـــم وردي اللون...

ترتـــدي ثوبًـــا فضفاضًـــا مـــن أســـفل الخصر- أظنـــه ذهبـــي اللون،لســـت بارعًـــا جـــدًا في تمييـــز درجـــات الألـــوان- أكمامـــه مكونـــة مـــن طبقتـــين، الأولى مـــن نفـــس قماشـــة الثـــوب، وتصـــل إلى مـــا قبـــل منتصـــف ذراعيهـــا بقليـــل، الطبقـــة الثانيـــة بـــدت لي أفـــتح لونًـــا،وأعطتني انطباعًـــا أنهـــا مـــن الـــدانتيل الثقيل .

يـــزين الثـــوب مـــن عنـــد منتصـــف الصـــدر عقدة(فيونكـــة) كحليـــة اللـــون، يتصل بها مابدا لي كسلاسل من اللآلئ .

مـــن عنـــد الكتـــف الأيمـــن، انســـدل وشـــاح خفيـــف ذو لـــون أزرق خفيـــف بـــه نقشـــات ذهبيـــة اللـــون، وفي يـــدها اليسرـــى كانـــت تحمـــل زهـــرة ورديـــة اللون، تشبه الأزهار في السلة أسفلها،التي تمسك بها يدها اليمنى.

الخلفيـــة هـــي مـــا أثـــارت اســـتغرابي؛ فقـــد كانـــت تبـــدو كجـــدار صـــخري، وفي جانب اللوحة الأيمن بدت السماء بلون الغروب .

رغم أنها قد تبدو عادية، إلا أنها أسرتني، أنا سعيد حقًا بامتلاكها...

علقتها في مدخل الشقة التي أسكنها؛ ولأجعلكم تتخيلو معي.

عنـــد الـــدخول مـــن البـــاب هنـــاك ممـــر قصـــير في نهايتـــه توجـــد طاولـــة أشـــبه ب(كونســـول) لكـــن بـــدون مـــرآة، ســـطحه مـــن الرخـــام، علقـــت غنيمتي من المزاد أعلاها، بدا وكأن أحدهما خلق للآخر ليكمله...

هـــي ليســـت شـــقة كبـــيرة، لكنهـــا تكفينـــي كشـــاب عَـــزْب، وإن كـــان إيجارهـــا مرتفعًـــا نســـبيًا، لكـــن هـــذه ضريبـــة الســـكنى بـــالقرب مـــن ضواحي لندن.

نســـيت أن أعـــرفكم بنفسيـــ اسمي"يوســـف آدم"، مصرـــي الجنســـية، أعـــيش ب"لنـــدن" منـــذ ســـنوات، أعمـــل طبيبًـــا، لكـــن الفـــن هـــوايتي وعشـــقي الأول .. إذا أردتـــم أن تبحثـــوا عنـــي فســـتجدونني في متحـــف مـــا، معـــرض فنـــي، أو حتـــى مـــزاد كالـــذي عـــدت منـــه لتـــوي، إذا لم أكـــن في أيهـــم، إذن ســـتجدونني في مشفى"ســـانت مـــاري" في حي"بـــادينجتون"، نعم مشفى"سانت ماري"الشهير حيث أُكتُشِفَ البنسلين.

وحيـــث معمل"ألكســـندر فلمـــنج"- مكتشـــفة الـــذي أصـــبح متحفًـــا مفتوحًا للزوار..

العديـــد مـــن أطبـــاء هـــذا المشـــفى نـــالوا شـــهرة لا بـــأس بهـــا، حتـــى إن أحدهم حاز على نوبل بفضل أبحاثه...

مـــن يـــدري، ربمـــا يومًـــا مـــا أكـــون قـــد صرت ذائـــع الصـــيت بفضـــل هـــذا المشفى- بعد فضل الله تعالى طبعًا-...

ياللهول...لقـــد أطلـــت الحـــديث ولم أنتبـــه للوقـــت، تلـــك العـــادة الحمقـــاء بالتحـــدث مـــع نفسيـــ بصـــوت عـــالٍ ســـتذهب بعقـــلي حـــتمًا، حســـنًا عـــليّ أن أسرع للحاق بموعد مناوبتي.

لعـــدة أســـابيع مضـــت ســـيطرت ملامـــح صـــاحبة"البورتريه"على خيـــالي؛ حتـى أننـي وجـدت نفسيـ متلبسًـا برسـم ملامحهـا عـلى كـل مـا تقـع عليـه يدي،رغم أنني لست بارعًا بالرسم حقًا!!

-"إنهـا حســناء يـا "جــو"... تـرى مـن هـي التعيسـة التـي أوقعهـا حظهـا معك؟"

قهقهت عاليًا قبل أن أقول:

-" هي ليست أحدًا أعرفه في الواقع يا"ألڤين"."

بتهكم رد عليّ قائلًا:

"حقًا؟!! .... إذن لم كل أوراقك تحمل ملامحها؟"

- "صــدقًا... أنــا لا أعــرف حتــى لهــا اســمًا ... ربمــا فقــط لأننــي أراهــا أمـــامي طـــوال الوقـــت... فحفظـــت ملامحهـــا ورســـمتها دون وعـــي مني..."

نظر"ألڤين"إليّ وعلى فمه ابتسامة ساخرة، ثم قال:

"وأيــن تــرى تلــك الحســناء طــوال الوقــت، إن لم يكــن لــديك مــانع خــذني معك؛ وسأعرف اسمها خلال خمس دقائق على الأكثر".

ثم غمز لي وهو يقول:

"وسآتيك أيضا برقم هاتفها إن أردت....".

تراجعـــت بظهـــري لأســـتند عـــلى ظهـــر المقعـــد، واشـــحت لـــه بيـــدي وأنـــا أقول ضاحكًا :

-"تعلــم أننــي لســت مــن ذاك النــوع يــا صــديقي، لســت مــن ذاك النــوع.... وأتحــداك إن اســتطعت أن تخــرج منهــا كلمــة فهــي لوحــة "بورتريه" معلقة في مدخل شقتي".

اعــترت الدهشــة ملامح"ألفين"لبضــع ثــوانٍ - حتــى أن فكــه تــدلى قلــيلًا بشــكل مثــير للضــحك حقًــا -ومــن ثــم انخــرط في الضــحك حتــى دمعــت عيناه،وخرجت كلماته من وسط الضحكات بصعوبة وهو يقول:

-"يالــك مــن بــائس يا"جو"،أنــت واقــع في حــب لوحــة، يــا لــك مــن بــائس، علينا أن نجد لك فتاة حقيقة يا رجل..".

***

تمضيــ الأيــام برتابتهــا المعتــادة، وخيــال ملامح"جــاين دو" لا يفــارقني، تتســاءلون مــن هي"جــاين"؟ إنهــا صــاحبة"البورتريه"...نعم أطلقــت عليهــا اســمًا، لا تســخروا مني؛"جــاين دو" اســم يُطلــق عــلى أي فتــاة مجهولة الهوية هكذا جرى العرف هنا.

لكثرة ما انشغلت بها وجدت أنه من اللائق ان أطلق عليها اسمًا.

تلــك ربمــا هــي المــرة الأولى التــي يســتحوذ عــليّ فيهــا عمــل فنــي لهــذه الدرجــة، حتــى أننــي بحثــت في الشــبكة العنكبوتيــة عــن أعــمال أخــرى لــذاك الرســام -"تومــاس هدســون"- فوجــدت لــه العديــد مــن لوحات"البورتريه"والعديــد منهــا أكــاد أجــزم أننــي ألمــح فيــه ملامــح "جاين".

-" كيف حال"جاين" اليوم يا"جو"؟"

تجاهلت النبرة الساخرة في صوت صديقي"ألڤين"وأنا أجيبه :

-"في الواقـــع لقـــد أمســـت تـــزورني في أحلامـــي الآن، هنـــاك شيء عجيـــب حقًا يتعلق بها، لست أدرك ما هو، لكني على يقين بذلك...".

-"صـــدقني"جو"أنت فقـــط تحتـــاج لمزيـــد مـــن العلاقـــات مـــع أشـــخاص على أرض الواقع، بعيدًا عن اللوحات والمنحوتات الفنية".

كدت أعلق لكنه قاطعني مسرعًا وكأنما سمع ما كنت أفكر فيه :

- "وبعيدًا عن مرضاك أيها المتحذلق".

- "بعيـــدًا عـــن المـــزاح، لقـــد أتـــت إليّ البارحـــة في منـــامي، ولأول مـــرة تحدثت إليّ كلمتين فحسب: أعثر عليّ...".

-"بعيدًا عن المزاح؟؟!!

مـا قلتـه بعـدها لا يتفـق يـا صـديقي مـع تلـك العبـارة، أيـن سـتعثر عـلى فتاة وجدت منذ ثلاثمائة عام على الأقل؟!".

-"لا أدري حقا...".

***

٢- جاين دو

تلـك الليلـة بـاردة حقًـا، الأمطـار تتسـاقط منـذ وقـت طويـل، المسـاء قـد حــل وأنــا الآن في طريقــي لمحطــة القطــار المــار بالأنفــاق لأعــود لمنزلي،بعــد أن عــبرت الطريــق للجهــة المقابلــة شيء مــا ألــح علــيّ أن التفـت للخلـف وهنـاك رأيتها،أنـا و اثـق تمامًـا أنهـا هـي، أو ربمـا هـي مـن نسـلها، في كـل الأحـوال تلـك الواقفـة ترتجـف بـردًا وقطـرات المـاء تسـيل علـى وجههـا، تلصـق خصـلات شـعرها بجبينهـا كانـت نسـخة منهـا، من"جاين".

وجــدتني أتقــدم نحوهــا،حين اقتربــت منهــا رأيــت الحــيرة تطــل مــن عينيها، تتلفت حولها كطفل تائه يبحث عن أمه...

-"أيمكنني مساعدتك آنستي؟".

تــرددتْ لوهلــة قبــل أن تجيــب، شــعرتُ وكأنهــا تــترجم كلــماتي قبــل أن تنطق رغم أنني لم أتحدث سوى بالإنجليزية.

-"أ.... أنا لا أعلم أين انا!!!".

- "حســــــنا...لا بأس..هــــــذا أمــــــر بســــــيط، أنــــــتِ في حي"بادينجتون"..."بلندن"...ماهي وجهتك؟وسأوصلك إن أردت"

تلفتت حولها مجددًا،ومن ثم قالت:

-"أنــا لا أعلــم مــا الــذي جــاء بي إلى هنــا.....ولا أعلــم حتــى .... مــن أنا!!!!".

ظللـت أحـدق بهـا لـبعض الوقـت ذاهـلًا، لا بـد وأنهـا ظنـت أننـي معتـوه مــن نــوع مــا...حتمًا كنــت أبــدو معتوهًــا وأنــا فــاغر فمــي بهــذا الشــكل، لكننـــي معـــذور،فها هـــي ذات الفتـــاة في لوحـــة اقتنيتهـــا، نفـــس الملامـــح، نفـــس العيـــون، الأنـــف، الفـــم الشـــعر،حتى ملابســـها تبـــدو وكأنمـــا جـــاءت من نفس عصر اللوحة الزمني.

لوهلـة ظننـت حقًـا أنـه حلـم آخـر مـن تلـك الأحـلام التـي تـزورني فيهـا مؤخرًا، لولا أني انتبهت على سؤالها:

-"أتســـتطيع مســـاعدتي؟ أيمكنـــك معرفـــة مـــن أكـــون ومـــا الـــذي أفعلـــه هنا؟".

أجبتهـا في سرعـة وكأنمـا كنـت أنتظـر تلـك الفرصـة، هـذا تمامًـا مـا كنـت أفكر فيه ولا أدري السبيل لطرحه.

-"بالتأكيد ... سأبذل قصار جهدي".

كان أول ما جال بخاطري أن على اصطحابها عائدًا إلى المشفى.

-"ما الذي عاد بك إلى هنا ؟!".

قالهـــا"ألڤين" مـــا أن رآني أدلـــف مـــن مـــدخل المشـــفى، حيـــث كـــان واقفًـــا في مكتـــب الاســـتقبال، وقبـــل أن أجيـــب كـــان قـــد انتبـــه لوجـــود "جاين"معي فهتف بدهشة بالغة :

-"ياللسماء!! لقد عثرت عليها...لقد عثرت عليها فعلا!!!".

التفتت إليّ"جاين" في حيرة وقالت :

-"عثرت عليّ؟!!".

فلوحت بيدي وأنا أقول لها :

-"لا تشغلي بالك به الآن..إنه محب للمزاح...".

كاد"ألفين" أن يهمهم بشيء ما، لولا أن عاجلته قائلًا :

-"أريد إخضاعها لفحص طبي شامل...الفتاة فيما يبدو فاقدة للذاكرة...".

-"وهل تملك تأمينًا صحيًا ؟!".

-"يالك من متذاكٍ أقول لك أنها فاقدة للذاكرة ولا يبدو أنها تحمل أي هوية...".

-"ماذا عن...".

قاطعته في سرعة:

-"سأتحمل كافة التكاليف...لا تقلق بشأن ذلك...".

- "حسنًا إذا... كما تريد... ".

وأخذ يطبع بعض البيانات على الحاسوب أمامه، ويجري اتصالًا بالقسم الداخلي، بينما هي كانت لا تزال أسمى آيات الحيرة ظاهرة علي وجهها؛ تتلفت حولها بريبة وخوف، شعرت نحوها بالشفقة حقًا...

ماذا يمكن أن يكون أسوأ من أن تجد نفسك بلا هوية، بلا أشخاص مقربين يستطيعون إخبارك عنك،غريب في أرض غريبة،غريب حتى

عــن ذاتك،ولربمــا رأيــت في المــرآة انعكاســك ولم تتعــرف عليــه... كــم هــذا قاسٍ...

***

- "حسنًا.... يبدو لي هذا جليًا الآن يا صديقي...أنت منحوس".

ضحكت وأنا التفت ل"ألڤين" الذي كان يتكلم بجدية :

-"لمــاذا؟! ... أعنــي بالتأكيــد أنــا منحــوس لأنــك ربمــا صــديقي الوحيــد المقــرب منــذ وطئــت قــدمي هــذه الــبلاد...لكن بعــد معرفتــك بي طيلــة السنين الماضية، ما الذي جعلك تدرك هذا اليوم بالتحديد؟".

نظر إليّ نظرة تقول فلتحمد ربك أنني صديقك،ثم قال:

-"في البدايــة تنجــذب للوحــة...تقع في حــب صاحبتها...ترســمها...تحلم بهــا...ومن ثــم بمعجــزة مــا تلتقيها...لتجــدها فاقــدة للذاكرة....هــذا نحس صافٍ يا عزيزي".

مستنكرًا صحت :

- "لم أقــع بحبها...أنــا.... لا أعلم...لكننــي لم أقــع بحبها...لســت معتوهًــا إلى هــذا الحــد... أقــع بحــب فتــاة في لوحــة...لا أعــرف عنهــا شــيئًا...كلا... كلا...لست معتوهًا لهذه الدرجة..".

بسخرية قال:

"حسنًا.... إن كنت تظن ذلك...".

أردت تغيير دفة الحديث فسألته عما إذا كانت"جاين"ستمضي الليلة هنا، فأجاب أن نعم وربما تبقى لعدة أيام إلى أن تظهر نتيجة الفحوص.

لم أجد داعٍ لبقائي أكثر من هذا في المشفى،على أية حال فلا حاجة لي في الوقت الحالي،وإذا ما ظهرت أي مستجدات فلديهم رقمي وسآتي على الفور...

ذهبت لأودعها ولأطمئنها أني سأعو د لاحقًا،وأنها في أيد أمينة، عليها ألا تقلق وألا تحمل همًا...وتركتها بعد أن اطمأننت إلى أنها ستنام حتى الصباح، بعد أن حقنوها بمهدئ يساعدها على النوم.

شعور غريب ذلك الذي انتابني وسيطر على كياني، تلك السعادة العارمة لرؤيتها بصدفة غير محسوبة،تلك الحماسة لاكتشاف من تكون...!!!

لماذا أشعر وأنها ليست كأي فتاة أخرى؟ لماذا كل هذا الاهتمام بها؟ لم أعهدني هكذا قط، ترى ما السبب؟

أتراني حقًا وقعت في حبها كما قال"ألفين"؟... لا... لا... هذا سخف... إنها غريبة عني كليةً...

ربما هو الفضول والظن بأنها ربما ترتبط بشكل ما ب"البورتريه"...

"البورتريه"، ذلك لغز آخر،كيف يمكن أن تتطابق ملامح شخصين لهذه الدرجة، الفارق بين وجودهما بضع مئات من الأعوام؟!!

تبًا لكل ذلك التفكير، رأسي تكاد تنفجر من الصداع، كل خلية بجسدي الآن تصرخ طالبة النوم، وعقلي لا يكف عن العمل، هلا هدأت يا هذا وأفسحت المجال قليلًا للسلطان...

ظهرت نتيجة الفحوص الطبية، لا شيء مريب على الإطلاق،عضويًا هي سليمة تمامًا...

لكن... ذاكرتها ممحوة تمامًا، صفحة بيضاء لا شيء فيها ولا حتى ومضات عمن تكون أو من أين أتت...،وكأنما انبثقت من العدم!!

لا أدري لِمَ، لكنني شعرت نحوها بالمسئولية...

كُتِبَ لها تصريح خروج من المشفى، مع توصية بالخضوع لجلسات نفسية؛ لعلها تساعدها على استرجاع أي لمحة من الماضي أو الحاضر القريب... وكما يبدو جليًا، لم يكن لدى"جاين"مكان لتقيم فيه، أو مصدر رزق تعيش منه...

وكما قلت.. أنا أشعر نحوها بالمسئولية؛ لذا عرضت عليها الإقامة في منزلي،ولو بشكل مؤقت، فقط حتى تستعيد ذاكرتها أو تجد عملًا ومنزلًا آخر، أيهما أقرب.

في البداية،رفضت بذعر غير مبرر من وجهة نظري، فالإقامة المشتركة وتقاسم الإيجار أمر شائع هنا، رغم أن هذه لم تكن نيتي، فبالرغم من أنني أعيش هنا منذ زمن،وقد اكتسبت بعض طباعهم،إلا أنني لازلت رجلًا شرقيًا، لا أقبل على أي أنثى ما لا أقبله على أختي .

لا أقبـــل أن أحـــوم حـــول الحمـــى...أوضـــحت لهـــا أنهـــا -إن قبلـــت- فســـتقيم في شـــقتي،وأذهب أنـــا للإقامـــة في مكـــان آخـــر، لـــن أقيـــد حريتهـــا،أو أتعـــرض لهـــا بشـــكل يضـــايقها بـــأي حـــال مـــن الأحوال...كانـــت لا تـــزال مـــترددة، لكنهـــا قبلـــت عـــلى مضـــض...أظنهـــا أدركـــت أنـــه لا حـــل آخـــر أمامهـــا ســـوى الشـــارع أو ملاجـــئ المشرـــدين، ولا هـــذا ولا ذاك -مـــن وجهة نظري- يحفظ لها كرامتها...

-"ألفين..."

ابتسم لِّي بخبث وقال:

-"هـــات مـــا ورائـــك"جو"....تريـــد شـــيئًا مـــا...أســـتطيع أن أشـــتم رائحـــة ذلك في الهواء".

ضحكت وأنا أقول :

-"صرت تحفظنـــــي"ألفين" ... في الواقـــع كنـــت أفكـــر لـــو أمكنـــك أن تستضـــيفني في منزلـــك لـــبعض الوقت،"جـــاين" ســـتقيم في منـــزلي، ولا يصح قطعًا أن أبيت هناك...أوحتى مجرد أن أتواجد".

رفع حاجبه وقال:

-"ســـتلعب دور النبيـــل إذن...هـــا...لا بـــأس.. بعـــض الفتيـــات يـــردن فارسًا ليقعن في حبه ....".

قلت مستنكرًا :

-"أهذا كل ما يشغل بالك؟!".

قهقه عاليا ومن ثم قال:

-"بل ما يشغل بالك أنت...أنا لدي خطيبة تشغلني".

- "حســـنًا أيهـــا العابـــث...أخبرني..هـــل توافـــق أم مـــاذا؟...أم أن عـــليّ البحث عن نزل ما ؟".

- "تعلـــم أننـــي لا أرفـــض لـــك طلبًـــا...وفي الواقـــع أنـــت كنـــت في المـــاضي رفيق سكن جيد".

***

-"مرحبا"جـــاين".... كيـــف حالـــك اليـــوم؟ لقـــد أذن لـــك الأطبـــاء بالخروج".

-"جاين؟!"...

-"إنه اسم مؤقت فحسب حتى تستعيدي ذاكرتك...".

-"أهـــو كـــذلك...حســـنًا...أظـــن أني بخـــير...لازلـــت تائهـــة وأشـــعر بالحيرة،لكن..".

-"هـــذا أمـــر اعتيـــادي...ســـتكونين عـــلى مـــا يـــرام...ســـأحرص عـــلى هذا...لقد أخذت على عاتقي مسئولية مساعدتك".

-"لســـت أدري مـــا أقـــول... تـــرى لمَ كـــل هـــذا الاهـــتمام...فحســـب قولـــك أنـــت لا تعرفنـــي...لم تلتقينـــي مـــن قبـــل... رغـــم أن كـــلام صـــديقك قـــد أعطاني إحساسًا مغايرًا...".

لم أدرِ مـــا يفـــترض بي قولـــه ردًا عـــلى ســـؤالها،انا أصـــلًا لا أعـــرف سر اهتمامي المبالغ فيه بها...

شـــعرت بـــالحرج حقًـــا وتلعثمـــت الكلـــمات عـــلى لســـاني، وفـــيما يبـــدو شـــعرت هـــي بـــذلك -وكيـــف لهـــا الا تشـــعر بهـــذا وأنـــا أبـــدو كـــالطماطم الناضجة- فابتسمتْ بخجل وهي تقول محاولة إزالة الحرج عني :

-"ربما التقينا في عالم الأرواح...هذا يفسر الأمر...أليس كذلك؟".

هززت رأسي موافقا وأنا أردد ما قالت:

-"بلى...ربما التقينا في عالم الأرواح...هذا تفسير مقنع".

نعـــم ربمـــا يكـــون الأمـــر كـــذلك، ربمـــا التقيتهـــا عنـــد نشـــأة الخليقـــة في عـــالم الأرواح،وكـــما ســـمعت كثـــيراً في صـــغري(الأرواح جنـــد مجنـــدة...) ربمـــا تآلفت روحانا في وقت سابق لخلقنا.

عـــدت بهـــا إلى منزلي،بعـــد أن مررنـــا لابتيـــاع بعـــض الملابـــس لهـــا ومـــا إن دلفت من المدخل حتى تسمرت أمام اللوحة...

فبادرتها بقولي:

-"اقتنيتها منذ فترة قصيرة ...جميلة ...صحيح؟".

-"إنهـــا تشـــبهني تماما!!...لهـــذا عنـــدما رآني"ألفـــين" قـــال إنـــك عـــثرت عليّ!!"

-"في الواقع...نعم..كان ذاك هو السبب...".

-"ألهذا أنت مهتم بمساعدتي؟...لأنني أشبه لوحتك؟".

في الحقيقـــة،لم أكـــن أدري إن كـــان هـــذا هـــو الســـبب فعلًا،لكننـــي ارتأيـــت أنه سيكون جوابًا مناسبًا يجنب كلينا الحرج.

-"ربما...لست أدري حقًا".

(تبًا يالي من أحمق، لمَ يتفوه لساني بما أشعر به دونًا عما أمليه عليه...).

اقتربت"جاين" أكثر من اللوحة تتفحصها، ومن ثم وجدتها تسحب وشاحها الذي كان ملتفا على رقبتها،وتمسك به بالقرب

من اللوحة...وشاحًا ذا لون أزرق خفيف وبه نقشات ذهبية اللون.

-"أظن اهتمامك في محله....أنا أملك ذات الوشاح المرسوم في اللوحة...

وهي تملك ملامحي...من الصعب الاعتقاد بأن تلك مجرد صدفة...".

-"هذا البورتريه له صلة ما بكِ...".

-"هذا مؤكد...".

والتفتت إليّ لنقول في صوت واحد :

-"علينا معرفة المزيد عن صاحبة هذه اللوحة.......".

تبادر إلى ذهني أن أكثر مَنْ يفيدنا بشأن اللوحة هو"أدريان جونز"، الشاب في قاعة المزاد حيث اشتريت اللوحة،فهو عادة من يقوم بالأبحاث المتعلقة بالتحف المعروضة في المزادات التي يقيمونها..

هاتفته قائلًا إنني أرغب بلقائه بشأن آخر لوحة اقتنيتها من قاعة المزادات التي يعمل بها...

-"أقســـم لـــك ســـيد"آدم"...إنهـــا أصـــلية وتســـتحق كـــل قـــرش دفعتـــه فيهـــا...أنـــت عميـــل دائـــم ولا يمكـــن أن أبيعـــك شـــيئا مشـــكوك في أمره...".

-"لا لا...لـــيس الأمـــر هكـــذا...أرغـــب فقـــط في معرفـــة مزيـــد مـــن المعلومات عن صاحبة"البورتريه"...دورثي كاست".

-"لســـت أدري إن كـــان لـــدي مـــا يفيـــدك...لكـــن ...تعـــال قـــابلني وسأخبرك ما أعرفه".

لم نكـــذب خـــبراً وكنـــا هنـــاك في قاعـــة المـــزادات - أنـــا و"جـــاين"- قبـــل الموعد بساعة إلا الربع...

شـــعور مخـــتلط انتـــاب كلينـــا، كـــان هـــذا واضـــحًا في ملامـــح وجهينـــا، حماسة وتوتر...!!

-"أتظنه سيخبرنا شيئًا مفيدًا؟ أعني...هل...".

صمتتْ تاركة تساؤلها مبتورًا....فأكملت أنا قائلًا :

- "هل أظن أنكِ"دورثي كاست"؟"

نظـــرت إليّ في دهشـــة وهمـــت بقـــول شيء مـــا، إلا أنهـــا أطبقـــت شـــفتيها مجددًا.

-"حسنًا... سيكون هذا ضربًا من الخيال صحيح؟...لكن...".

-"لكن ماذا؟".

-"أحيانًا الواقع يكون أغرب من الخيال".

لم أدرِ مــن أيــن جــاء ذلــك الهــراء الــذي تفوهــتُ بــه،كيف لهــا أن تكــون "دورثي"التي عاشت قبل مئات السنين...

لمَ اتفــوه بالحماقــات في حضــورها؟،عجباً إن لهــا تــأثيراً غريبــا عــليّ مــن قبل حتى أن أقابلها...

أنقذني من أفكاري وصول"أدريان جونز".

-"إذن ...ما الذي ترغب في السؤال عنه؟".

-"كــل مــا تعــرف عــن تلــك اللوحــة المســماة ب"دورثي كاســت"...مــن هي صاحبتها ؟؟...نسبها...أي شيء عنها على الإطلاق...".

-"لســت أعلــم عنهــا الكثــير في الواقــع...تــاريخ رســم اللوحــة غــير معــروف عــلى وجــه التحديــد...تومــاس هدســون- الرســام - اشــتهر بكونــه رســاما ل"بورتريهــات" الطبقــة الأرســتقراطية في زمنــه...في الفــترة مــن ١٧٤٠ - ١٧٦٠....وكــان أوج نجاحــه ف"لنــدن"في الفــترة مــن ١٧٤٥- ١٧٥٥ سرت بعــض الإشــاعات عــن وجــود مــذكرات لــه... وحســبما أعلــم فــإن أكــثر مَــن ْيفيــدك هــو أمــين متحف"بريســتول"... فهــو يمكنــه أن يؤكــد لــك وجــود تلــك المــذكرات مــن عدمــه...وإن وُجِــدت حقًــا فهــو ســيعلم أيــن هــي...وقــد تكــون في متحف بريستول ذاته...".

-"وما الذي سأستفيده بمذكرات الرسام ؟!!".

كاد أن يجيب لولا أن سبقته"جاين" قائلةً :

-"لعله أتى على ذكر صاحبة اللوحة فيها "جو"."

-"السـيدة محقـة... هـذا مـا كنـت سـأقوله تمامًـا...أ... عـذرًا سيدتي..هل التقيتك من قبل؟! أشعر أن وجهك مألوفًا لي".

- "حسـنًا.. أشـكرك عـلى وقتك"أدريـان"...لا تـنس إبلاغـي في حـال وصول تحف فنية قيمة أخرى إليكم...هيا"جاين".. علينا أن نرحل".

-"بالتأكيد سيد"آدم"...سنكون على اتصال".

-"إذن...ما التالي؟".

-"سأحجز تذكرتي قطار إلى"بريستول".

***

٣- مذكرات توماس هدسون

طـــوال الطريـــق إلى"بريســـتول" كانـــت تـــراه يخـــتلس النظـــرات إليهـا...تلـك النظـرة في عينيـه، لم تـدرِ كيـف تفسرـها، ينظـر إليهـا وكأنـه لا يـرى سواها،يُشـعِرها بالأمـان وكأنمـا مجـرد نظراتـه تحاوطها،تحميهـا من المجهول الذي فجأة وجدت نفسها فيه...

كانـت تفكـر في أنـه تلقفهـا تائهـة وحيـدة، تنـتفض بـردًا ومنحهـا مـأوًى، ملاذًا آمنًا بلا أي مقابل...

وهـا هـو الآن يجـد السـعي لمسـاعدتها عـلى اكتشـاف مـن تكـون، في رأسها كانت تحدث نفسها قائلةً :

"عليّ إيجاد رابط ما يصلني بلوحة معلقة في شقته"...

تتسـاءل تـرى مـا الـذي يدفعـه لبـذل كـل ذاك الجهـد لمسـاعدة غريبـة تمامًا عنه؟ أهو الفضول فحسب؟ أيعقل هذا؟

ومـاذا عـن ذاك الشـعور داخلهـا؟ لِـمَ ارتاحـت لـه ونفـذت كـل مـا طلـب لمَ قبلـت الـذهاب معـه للمشـفى تلـك الليلـة؟ مـا أدراهـا أنـه لـن يمسسها بسوء؟ لربما كان يخدعها ؟

تساؤلات عدة دارت بخلدها...

"لكــن قلبــي هــو مــن اقتــادني، قلبــي؟! أتــراني وقعــت في حبــه؟ أم هــو الامتنان لصنيعه معي وحسب؟".

اختلســت هــي الأخــرى نظــرة سريعــة إليه،وســيم هــو، لكــن الأهــم مــن ذلــك أنــه رجــل، رجــل حقًــا لا مجــرد ذكــر، تصرــفاته جميعهــا تشيــ بذلك...

قاطع حديثها مع نفسها بغتة حين قال :

-"حســنًا... هاقــد وصــلنا "بريســتول"...أتــرغبين في تنــاول شيء مــا؟ وجبة خفيفة... كوب قهوة أو فنجانًا من الشاي؟".

حاولت استجماع شتات نفسها بينما أجابته قائلةً :

-"لا... شــكرًا لــك...إذن...أتعــرف أيــن يقــع متحــف "بريســتول" ذاك؟!".

-"أجــل...إنــه في"كليفتــون"... اختصــارًا للوقــت ســنركب ســيارة أجــرة إلى هناك...هيا بنا.."

الكثــير مــن الأشــياء تشــعرها بالغرابــة،القطارات،القطارات المــارة بالأنفــاق وســيارات الأ جــرة، الســيارات عمومًا،الحواســيب،الهواتف النقالة...

في الواقــع أغلــب مــا حولهــا كــان يُشــعرهابالغرابة، بالــذعروكأنها هــي المــرة الأولى التــي تــرى فيهــا مثــل تلــك الأشــياء، حتــى المنــازل تبــدو بالنسبة لها شاهقة للغاية وكأنها عمالقة بانتظارالانقضاض عليها...

ثــم المصــعد!!!تلك العلبــة المعدنيــة المغلقــة الضــيقة،التي كلــما ركبتهــا شعرت أنها ستسقط في أية لحظة...

أهكــذا يكــون فقــدان الــذاكرة؟ تمسيــ طفــلًا مــذعورًا مــن كــل مــا هــو مألوف لمن عداك ؟!!

هــل معنــى فقــدان الــذاكرة أنــك تفقــد كــل مــا عرفتــه يومًــا؟ أم أن هنــاك مــا يظــل كامنًــا داخلــك لكنــك تحتــاج فقــط الوقــت لــتراه وتدركــه مجددًا؟!!

-"ها نحن ذا...لقد وصلنا "جاين" ".

كانــت الســاعة تقــترب مــن ا لرابعــة والثلث،كانــا محظــوظين فقــد سُــمح لهــما بــدخول المتحــف، كــان كبــيراً حقًــا...وبــه أقســام متنوعــة لم تقتصرــ عــلى الفنــون فحســب، كــان هنــاك قســم للجيولوجيــا وقســم للفــن الشرــقي وآخــر لتاريخ"بريســتول"،غير أن هنــاك قســمًا للتــاريخ الطبيعي...

أمــا معــرض الفنــون فقــد احتــوى عــلى أعــمال مــن مختلــف الفــترات الزمنية،وقــد كــان المكــان أشــبه بــالحلم بالنســبة ليوســف الــذي تمــتم بينه وبين نفسه بصوت غير مسموع قائلًا :

"لا بـــد وأن آتي إلى هنـــا مـــرة أخـــرى؛ لأتفـــرغ فيهـــا لرؤيـــة كنـــوز هـــذا المتحف، ربما يومًا ما بعد أن نعرف من تكون"جاين"!!"

توجهـــا مـــن فـــورهما إلى أمـــين المتحـــف الـــذي مـــا أن رآهـــما مقبلـــين نحـــوه حتى أشاح بيده قائلًا :

-"لقـــد أوشـــكنا عـــلى الإغـــلاق...تنتهـــي ســـاعات العمـــل الرســـمية في تمـــام الخامســـة ...أنصـــحكما بالقـــدوم في الغـــد، فلنقـــل في التاســـعة صـــباحًا لتستطيعا أخذ جولة كاملة".

فبادره يوسف قائلًا :

-"في الواقـــع ســـيدي نحـــن هنـــا اليـــوم مـــن أجلـــك أنـــت، ربمـــا في وقـــت آخـــر سآتي من أجل تلك الجولة".

ضـــحك الرجـــل الـــذي بـــدا أنـــه اقـــترب مـــن الســـتين رغـــم أن ملامحـــه فقـــط هي ما تشي بسنه وقال :

- "ربما أكون عجوزًا، لكنني لم أصبح بعد من معروضات المكان".

-"معـــاذ الله يـــا ســـيدي أن يكـــون ذلـــك مقصـــدي...في الواقع"أدريـــان جونز" قد أوصانا بك ...وقال إنك الوحيد القادر على مساعدتنا".

أومأ برأسه إيجابًا عدة مرات وهو يقول :

-"أها.."أدريان جونز"..الشاب من قاعة مزادات العاصمة صحيح؟".

-"أجل.. سيدي".

-"هـــو شـــاب مجـــد في عملـــه... إذن لابـــد وأنكـــما هنـــا مـــن أجـــل تـــاريخ أحد الأعمال الفنية".

-"أنت محق مجددًا يا سيدي".

ألقى نظرة خاطفة على ساعة يده ثم قال:

-"حسـنًا...امنحـاني القليـل مـن الوقـت... فعـليّ الإشراف عـلى إغـلاق المتحف...انتظراني خارجا وسألقاكما"

-"حسنًا إذن...كما تقول...هيا بنا"جاين"".

لم يمـضِ الكثـير حتـى وجـداه قادمًـا نحـوهما، اقـترح يوسـف الـذهاب لمطعـم مـا أو لأحـد المقـاهي، فلربمـا يطـول الحـديث ولـن يرغبـوا في امضاء الوقت وقوفًا على أقدامهم،وقد كان...

لم يكـن يوسـف واثقًـا كيـف يمكـن أن يبـدأ الحـوار، لكـن أمـين المتحـف وفر عليه العناء حين قال :

-"إذن...أي الأعمال الفنية قد جئتما بشأنه؟".

-" "بورتريه" يحمل اسم "دورثي كاست" للرسام ...".

قاطعه قائلًا :

-" "تومـاس هدسـون"... أجـل.. أجـل سـمعت عـن هـذه اللوحة...وأظن أني قرأت الاسم-دورثي- في مكان ما في مذكراته "

في حماسة قالت "جاين":

-"إذن فالمذكرات حقًا موجودة".

نظر إليها مطولًا، ثم قال :

-"بـــالطبع موجـــودة.... و"دورثي" تلـــك مـــذكورة فيهـــا..... كـــما ذُكـــر أيضًـــا اســـم"أديلينا"...وتحـــدث كـــذلك عـــن محـــاكمات الســـاحرات التـــي انتشرت في وقت ما في تلك الفترة من الزمن".

كانـــت لا تـــزال عينـــاه معلقتـــين بهـــا- مـــما أورث يوســـف شـــعورًا عجيبًـــا بـــالغيرة، التـــي لا يـــدري لهـــا ســـببًا منطقيًـــا- لـــذا فقـــد حـــاول تحويـــل بصره عنها إليه فقال:

-"أين هي تلك المذكرات إذن؟وهل يمكننا الاطلاع عليها وقراءتها؟".

نجحت الحيلة..والتفت نحوه قائلًا ببساطة :

-"إنهـــا في "ديفـــون"...حيـــث مســـقط رأس"تومـــاس هدســـون"... تحديدًا في مدينة "إكستر"...ويمكنكما قراءة نسخة منها هناك".

في صوت واحد ردد يوسف وجاين :

-"ديفون؟؟!!"

فأجاب ببساطة وهو يتراجع بظهره ليستند على ظهر مقعده :

-"أجل..."ديفون" ".

شـــعر يوســـف بخيبـــة الأمـــل تعلـــو ملامحهـــا،ونبرات صـــوتها وهـــي تـــنهض من على مقعدها وتقول:

-"شكرًا على وقتك سيدي".

فـــنهض هـــو الآخـــر ليلحـــق بها،حيـــا الرجـــل وذهـــب خلفهـــا ومـــا أن لحـــق بها؛ حتى ربت على كتفها وكأنه يواسيها قائلًا :

-"حســـنًا...يبـــدو أننـــا ســـنركب القطـــار مـــرة أخـــرى...ولكـــن لـــيس إلى"لنـــدن"...لـــيس بعـــد...لم ينتـــه الأمـــر.. لازال هنـــاك طـــرف خـــيط نتبعه".

"ديفـــون"...الاســـم بـــدا مألوفـــا لأذنيهـــا،هي مقاطعـــة كبيرة،واحـــدة مـــن ثلاث أكبر مقاطعات"إنجلترا"...

ومـــا يميزهـــا عـــن بـــاقي المقاطعـــات الإنجليزيـــة أنهـــا الوحيـــدة التـــي تطـــل عـــلى القنـــاة الإنجليزيـــة، وقناة"بريســـتول"في الوقـــت ذاته،عاصـــمة المقاطعة مدينة"أكستر"، وهي حيث يتوجهان الآن...

حـــين وصـــلا كانـــت الســـاعة قـــد تخطـــت الســـابعة والنصـــف مســـاءَ، توجـــه يوســـف إلى نافـــذة الاســـتعلامات وتبـــادل بعـــض الكلـــمات مـــع الموظـــف هناك ثم قفل عائدًا إلى جاين...

-"يبدو أننا سنضطر للمبيت هنا الليلة"جاين" ".

- "لِمَ؟ ما الذي قلتماه هناك؟".

- "لقـــد ســـألت أيـــن يمكننـــي إيجـــاد مخطوطـــات تعـــود إلى ثلاثمئـــة عـــامٍ مضـــت،فأجاب إن فرصـــتي الفضـــلى في مكتبة"إكســـتر"، فهـــي تحـــوي قســـمًا للمـــوروث الثقـــافي ل"ديفـــون" لكنهـــا أقفلـــت أبوابهـــا الآن، نستطيع الذهاب غدًا في التاسعة صباحًا".

The Great Western Hotel

لا يبعـــد عـــن وســـط المدينـــة ســـوى كيلـــومتر ونصـــف تقريبًا،كـــان لا بـــأس بـــه...في الواقـــع لم يكـــن مســـتواه ليفـــرق معهـــما كثـــيراَ، كـــل مـــا أراداه

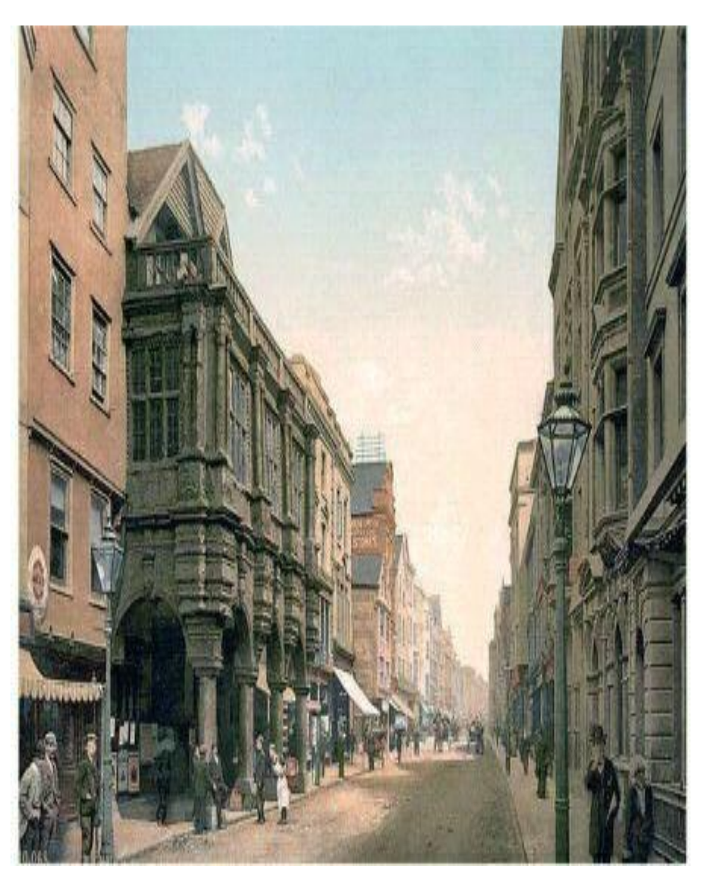
وجبـــة ســـاخنة يشـــبعان بهـــا الجوع،وفراشًـــا دافئًـــا يُلقيـــان عليـــه بجسديهما المنهكين منذ الصباح..

أيـا مـنهما لم يكـن قـد نـال كفايتـه مـن النـوم العميـق، ربمـا هـو الحـماس أنهما ربما يقتربان من معرفة شيء ما، قد ينير لهما الدرب...!!

حتى تلك اللحظات التي غفلت فيها أعينهما رغمًا عنهما، حملت أحلامًا وتصورات عما يمكن أن يجداه...

استيقظا باكرًا والتقيا في بهو الفندق ومنه إلى المطعم الملحق، تناولا إفطارًا سريعًا وفنجاني شاي، وانطلقا في طريقهما إلى مكتبة "إكستر"...

في طريقهما مرّا بالشارع الرئيسي، كم بدا مألوفًا لجاين! شعرت وكأنها كانت هنا في وقت سابق من حياتها، تلك الطرز المعمارية والطرقات...



الشارع الرئيسي بمدينة "إكستر"



مكتبة "أكستر"

- "هذا الشارع يبدو وكأنه لم يمر به الزمن مطلقًا...وكأنه قادم من الماضي... صحيح "جاين"؟!".

التفتت إليه وابتسمت قائلةً :

-"لا أذكر شكل الحاضر لأعرف شكل الماضي،لكنه يبدو مألوفًا على أي حال".

أخـــيراً وصـــلا-ولدهشـــتهما- كـــان العثـــور عـــلى مـــذكرات"توماس هدســـون"المحفوظة يســـيراً، بحيـــث لم يصـــدقا أنهـــما بهـــذا القـــرب مـــن الوصول لشيء ما، أي شيء على الإطلاق..

جلســا بإحــدى الحجــيرات وبــدأ يوســف يمــر سريعًــا عــلى الصــفحات بعينيـــه، وعينـــا جـــاين معلقتـــان بـــه، تـــركض لاهثـــةً خلفـــه عـــلى الصفحات...!!

وفجـــأة توقـــف، واتســـعت حـــدقتا عينـــه بحـــماس كمـــن وجـــد كنوز"قارون"وقال :

-"هـــاهي ذا.... هنـــا ذكـــر اســـم"دوروثي كاســـت" "، وشرع في قـــراءة المكتوب أمامه بصوت مسموع...

(دوروثي كاســت ... هــذه الحســناء مــن الطبقــة الأرســتقراطية...اليــوم انهيت رسم"البورتريه"الخاص بها...

طيلــة الفــترة الماضــية التــي كنــت أتــردد فيهــا عــلى قصرــ عائلتهــا، كنــت أشــعر أننــي عرفتهــا ســابقًا... لا.. بــل عرفتهــا في حيــاة أخــرى حملــت هي فيها اسم"أديلينا"...

وكــأنني...قــد عشــت حيــاتين...الأولى لا أذكــر منهــا إلا لمحــات خاطفــة.. تتراءى لي في أحلامي... فيها أعرف"دورثي كاست" باسم"أديلينا"...

الغريــب في الأمــر حقًــا.. هــو وجــود فتــاة أعرفهــا في القصرــ بــنفس الاسم... يُشاع انها ابنة غير شرعية للسيد"كاست"...)

(تتــذكرون عنــدما أخــبرتكم عــن"دورثي كاســت"؟ حســنًا...لقــد اختفــت... اختفــت تمامًــا منــذ بضــعة أســابيع، الآن وبســبب هــذا أُتهمــت "أديلينــا" المســكينة بالســحر والشــعوذة...وهــذا لــو تعلمــون أمــر مريــع حقًــا... فكــل مــن يشــتبه بممارســته للســحر يُقــدم إلى المحاكمــة مــن قبــل الجماهــير التــي تشــتبه بــه،وبالتواتر وحــده دون الحاجــة لــدليل مــادي...وهــذا راجــع إلى تعــاليم الكنيســة كــما ورد في كتــاب مطرقة الساحرات*...

لقــد أخضــعوها لاختبــار الغــرق...أحــاطوا رســغيها وقــدميها بالأغلال..وألقوا بها في الماء...

حســنًا..لقد غرقــت...أو كــادت تغــرق...لــولا أن أحــد الــواقفين هــرع لمســاعدتها، وأخرجهــا مــن المــاء...في الواقــع.. هــذا لم ينقــذها...بــل زاد الوضع سوءًا...لكليهما!!

فبالنســبة لهــا...أثبــت هــذا عليهــا تهمــة الســحر والهرطقــة...فقــد قــال القــاضي أنهــا أثــرت عــلى ذاك الرجــل بالســحر...وأمــا الرجــل فقــد اتهــم انه خضع لسلطة الشيطان ؛ وعليه صدر الحكم بإعدام كلًا منهما حرقًا كما جرى العرف في إعدام السحرة...)

(ثمـــان أعـــوام مضـــت الآن عـــلى اختفـــاء"دورثي كاســـت"....واليـــوم..
ظهـــرت مجـــددًا... بـــنفس هيئتهـــا وملامحهـــا التـــي رســـمتها يومًـــا...
وكأنما لم يمر على اختفائها سوى القليل من الزمن...).
أخذ"جو" يقلب مجددًا في الصفحات ثم قال :
-"هـــذا كـــل شيء .... لا ذكـــر لهـــا مجـــددًا في أي مـــن الصـــفحات التاليـــة
ولو بشكل عابر حتى..."

***

*كتاب مطرقة الساحرات.. هو كتاب كتبه اثنان من الرهبان..
"هـــايرنش" و "جـــاكوب".. الجـــزء الأول مـــن الكتـــاب: يقتضيـــ أن
المســـيحيين لـــديهم التـــزام (عقائـــدي - كنسيـــ) بمطـــاردة (الســـحرة)
وقتلهم..
الجـزء الثـاني مـن الكتـاب: يعـالج كيفيـة كتابـة وعمـل السـحر مـن قبـل
الساحرات..
الجـزء الثالـث مـن الكتـاب: ينـاقش مـا الـذي يمكـن للمسـيحي المـؤمن
أن يفعله؛ليســـاعد العدالـــة بتقـــديم الســـاحرات إلى المحكمـــة
الكنســية(محكمة التفتــيش) أو المحــاكم المدنيــة بتهمــة الســحر، وفيــه
تحــريض قــوي عــلى تقــديم كــل مــن يشــتبه بممارســته للســحر إلى
المحكمــة مــن قبــل الجماهيرالتــي تشــتبه بــه، وبــالتواتر وحــده دون
الحاجة لدليل مادي.

***

أديلينا

٤- لمحات من حياة مضت ...

تنهد"جو "وقال :

-"يبـــدو أنـــه طريـــق مســـدود...لم يـــذكر شـــيئًا عنهـــا...عـــن نســـبها.. كنـــا لنســـتطيع حينهـــا البحـــث نـــزولًا في شـــجرة عائلتهـــا...لربمـــا وجـــدنا مـــا يربطك بها.."

-"على العكس... لقد قال بعض الأشياء التي....".

-"التي ماذا ؟!".

-"وجدت صدًى في نفسي.... أشياء بدت مألوفة لي جدًا..".

-"حســـنًا"جاين"... الآن بـــدأت أشـــعر بالغبـــاء قلـــيلًا... هـــلا أوضـــحتِ ليّ مقصدك ببعض الشيء ؟".

-"لا عليك "جو".. ربما لاحقًا يتضح الأمر أكثر...

هـــلا عـــدنا إلى"لنـــدن" الآن؟ لا أرغـــب في أن تغيـــب عـــن عملـــك أكـــثر مـــن ذلك".

هز"جو" كتفيه ومط شفتيه في عدم رضا ومن ثم قال :

-"لا بأس... حسنًا.. أعني إن كان هذا ما ترغبين به...".

عـــدنا إلى"لنـــدن"مرة أخـــرى، أوصـــلني"جو" إلى شـــقته.. تركنـــي عنـــد البـــاب ورحـــل ذاهبًـــا إلى عملـــه... شـــعرت أنـــه كـــان محبطًـــا لأنـــه لم يجـــد

دليلًا مباشرًا يربطني بتلك اللوحة أمامي... أما أنا، فمع كل حرف يقرأه كنت أرى في خيالي مشهدًا خاطفًا وكأنها ذكرى، لكنها مشوشة...

ذلك الاسم المذكور في المذكرات-"أديلينا"- إنه مألوف جدًا...!!أنا مرهقة جدًا الآن ربما سأخلد للنوم قليلا...

(" "أديلينا"...تعالي إلى هنا..من كسر تلك الآنية أتعلمين كم ثمنها أيتها الحمقاء؟".

-"أنا آسفة أمي..."

-"وما الذي سأفعله بأسفك حين يقرعني السيد"كاست".. ها.. ما الذي سأفعله حينها؟ ".

-"أخبريه أن ابنته من كسرتها".

-"الآنسة"دورثي" ليست في القصر اليوم ... وحتى إن كانت.. أتريدينني أن أكذب.. تبا لكِ من فتاة عاقة".

بحنق قالت"أديلينا" :

-"لم أطلب منك الكذب أمي...أولست أنا الأخرى ابنته؟!".

كاد الشرر يقفز من عيني الأم وهي تنقض على ابنتها؛ تجذبها من ياقة ثوبها بشدة،وهي تكاد تصرخ بصوت هامس :

-"إياكِ أن تأتي على ذكر هذه السيرة مجددًا...أتفهمين...أترغبين في أن نتدلى من على أغصان الأشجار...ها...

يا للهول.. منذ متى وأنتِ بهذاالغباء..تبًا يا فتاة...".

انتظرت"أديلينـــا" إلى أن رحلـــت أمهـــا بعـــد أن وعـــدتها أنهـــا ســـتنظف المكان،وتعيد كل شيء كما كان،كما كان تمامًا...

لـــو أن أحـــدهم كـــان واقفًـــا لحظتهـــا لرأى"أديلينـــا" تختفـــي فعليًـــا لبضـــع لحظـــات.. ثـــم تظهـــر مجـــددًا، ويظهـــر المكـــان كـــما كـــان.. مرتبًـــا...كـــما أن الآنية تعود مكانها بدون خدش واحد حتى ...).

(جلســـت تتأمـــل المـــاء المتـــدفق في القنـــاة أمامها،وأخـــذت تحـــرك يـــدها في الهـــواء أمامهـــا، الغريـــب أن مـــع حركـــة يـــدها كانـــت قطـــرات المـــاء تتحـــرك لترسم نفس الأشكال التي ترسمها هي...

فجـــأة شـــعرت أن أحـــدهم يقـــترب، فخفضـــت يـــدها ووضـــعتها عـــلى ركبتيهـــا، في نفـــس اللحظـــة ســـقطت قطـــرات المـــاء لتنـــدمج مـــع البقيـــة،وكأنما كانـــت مربوطـــة جميعًـــا بخـــيط قـــد انقطـــع فانفرطـــت كحبات عقد اللؤلؤ!!

-" كيف حالك "آدي"؟".

-"بخير"توم"... كيف حالك أنت؟ وما أخبار لوحاتك؟"

-"إنهـــا جيـــدة...أتحســـن تـــدريجيًا... ربمـــا قريبًـــا ســـأذهب لأتتلمـــذ عـــلى يد"جوناثان ريتشاردسون".... ألم تسمعين عنه؟".

-"بلى... هنيئًا لك يا صديقي...أتمنى لك التوفيق..".

-"ما الأمر"آدي" ؟... يبدو عليكِ الضيق".

-"لا شيء...أنا على مايرام".

نظر إليها قليلًا ثم قال:

-"لا...هناك ما يثير ضيقك...أنا أعرفك أكثر منك...أعرفك منذ ولدتِ"

أشاحت ببصرها بعيدًا في الفضاء ومن ثم غمغمت قائلةً:

- "لقد نهتني أمي عن الحديث في الأمر سابقًا... وهناك الكثير من المستجدات تجري معي...ولم أستوعبها بعد...".

-"تعنين الحديث المتناثر بشأن كونك ابنة غير شرعية للسيد"كاست"...أم... السحر؟"

التفتت "أديلينا" إليه بحدة وهي تهتف به قائلةً :

-"هل جننت"توماس"؟ أتسعى إلى حرقي حية؟! ماذا لو سمعك أحدهم..ماذا لو كان أحد الإكليروس*مارًا من هنا في تلك اللحظة؟ تعلم أنهم لا يحتاجون لأدلة لتقديم مشتبه به كونه ساحرًا للمحاكمة... يا للهول"توماس"...يا للهول...".

ضحك توماس قليلًا وهو يقول :

-"اهدأي "آدي"...لا أحد هنا سوانا.. لا أحد على الإطلاق..".

ثم مال على أذنها وهمس قائلًا :

-"لقد رأيت قطرات الماء ترقص في الهواء مع حركة يدك...أعلم أنك منهم...لكنني أبدًا لن أشي بكِ").

***

*الإكليروس هم رجال الدين المسيحي.

***

استيقظت من نومي أشعر بالدهشة، هذا الحلم العجيب، شعرت أنه واقعي للغاية، بدا وكأنه ليس مجرد حلم.. يقين ما تولد بداخلي أن ما رأيته كان ذكرى من حياتي السابقة قبل أن أفقد ذاكرتي!!

نفضت رأسي بقوة وكأنما أحاول نفض الأفكار عنها، فما أفكر فيه غير منطقي بأي حال من الأحوال...

لقد كنت في ذاك الحلم أحيا حياة "أديلينا"- تلك التي ذكرها "توماس هدسون" عابراً في مذكراته- كيف يمكن أن تكون ذكرى؟ حتى لو افترضنا عبثًا أنني كنت أحيا في الماضي وبطريقة عبثية عشوائية ما أمسيت ها هنا، أو أنه نوع من تناسخ الأرواح، "فالبورتريه" المعلق في مدخل هذه الشقة يقول إن حينها يفترض بي أن أكون"دورثي كاست"- حيث أنني أحمل ملامحها وأمتلك وشاحها- لماذا إذن أراني في شخصية "أديلينا" تلك؟!

رباه...إن رأسي يكاد ينفجر من الألم...

حتام سأظل في تلك الحيرة يا إلهي؟!!

توالت الأيام...وازدادت تلك الومضات في أحلامي، ترددتُ كثيراً في إخبار"يوسف"عنها، ما الذي يمكن أن أقوله؟!

كيف لي أن أشرح شيئًا لا أفهمه؟

صرت كثيراَ أراني أحيا حياة "أديلينا" تلك، أصبحت أعرف عنها الكثير، هي حقًا ابنة غير شرعية للسيد"كاست" ذاك، ورثت عن عائلة أمها السحر وهو يجري في دمائها على ما يبدو، تمارسه أحيانًا عن غير وعي، وهذا في زمنها من أخطر ما يكون فإن علم أحدهم بهذا فإن ذلك يعني حكم الموت عليها !

مؤخراَ -في أحلامي- بدأت تتحكم في موهبتها تلك وتعبث بها أحيانًا...

رأيتني- في شخصيتها وملامحي-وكأنما أعود بالزمن للوراء، أحيانًا لساعات وأحيانًا لبضع أيام، أصلح أخطاء ارتكبتها دون أن يلمحني أحدهم، وأعود لذات اللحظة التي اختفيت فيها في حاضري، أحاول استنتاج أثر التغيير الذي أحدثته في الماضي وأتصرف على أساسه...

الوحيد الذي كان يعلم بشأن كوني أو كون "أديلينا" تلك ساحرة كان الرسام،"توماس هدسون"،يبدو أن مذكراته قد أغفل فيها الكثير، هذا لو افترضنا أن أحلامي واقعية، وهو ماأظنه إلى الآن ضرباً من الخيال...

(كعادتها في وقت فراغها...جلست "أديلينا" تتأمل تدفق الماء في القناة، حين فوجئت ب"توماس" آتيَا نحوها يركض من بعيد...

-""أديلينا"...أنتِ في خطر".

انتفضت في مكانها وهبت واقفة تسأله في ذعر :

-"ما الذي تعنيه ؟!"

-"سمعت بعض النسوة في السوق...يتهامسن بشأنك... يشتبهن في كونك ساحرة...تعلمين ما يعنيه هذا...".

-"ياللهول! يا للهول! ...ما الذي يفترض بي فعله الآن...يا لمصيبتي..".

- "حاولي أن تهدئي قليلًا حتى تستطيعي التفكير بوضوح...وأثق أنك ستجدين مهربًا ما".

-"لست أدري...لست واثقة كيف يمكنني الهروب هذه المرة".

صمت "توماس" لبعض الوقت وبدا على وجهه التركيز العميق... ثم التمعت عيناه وقال :

-"كما تهربين في كل مرة...عودي بالزمن للوراء واحرصي على تفادي أخطاءك التي جعلت شكوكهن تستثار".

- "لكنني لا أعلم تحديدًا ماهي تلك...".

بترت كلامها فجأة ورفعت بصرها إليه وهي تقول :

-""توماس"...أنت عبقري...سأعدل قليلًا فكرتك..".

-"كيف ؟".

-"سأصبح الابنة الشرعية للسيد"كاست"...سلطاته ستحميني منذ طفولتي...".

-"لست أفهم...ما الذي تعنينه؟ ماذا عن "دورثي"؟".

-"سأصبح أنا هي...وهي ستكون في أمان..لأنها ليست بساحرة...لن يضيرها أن تصبح هي "أديلينا" .

-" كيف ستفعلينها ؟!".

-" كــما قلــت أنــت...ســأعود بــالزمن للــوراء... كلتانــا ولــدت في نفــس اليـــــوم...ســــــأبدل"دورثي"ب"أديلينا"... وأعـــــود للحـــــاضر مـــــرة أخرى..أكون حينها"دورثي"...

-"ألــن يكتشــف أحــد الأمــر؟ لقــد رســمتُ لهــا لوحــة.. ألــن يكشــفك اختلاف الملامح عنها؟".

-"مــن تجــاربي الســابقة...ســتتبدل ذاكــرة الجميــع لتــتلاءم مــع التغــير الذي أحدثته").

مــا الــذي يعنيــه هــذا الحلــم الأخير؟!ترى..هــل أنــا "أديلينــا"؟ هــل قمــت بالتبــديل؟!! ربمــا هــذا يفسرــ تســمية اللوحــة التــي تحمــل ملامحــي اسم"دورثي كاست"...

تــرى...أيجــب أن أخــبر "يوســف" بــأمر تلــك الومضــات التــي تنتــابني ؟ أحان الوقت لهذا ؟

أشــعر بــالألم في رأسي يــزداد، ضــوء الشــمس الــذي اقــتحم الغرفــة مــن النافــذة المفتوحــة يشــعرني بالضــيق، عينــيَ لا تكــادا أن تحتملانــه،كم أود لــو أن الســتائر تنغلــق مــن تلقــاء نفســها، فأنــا الآن أكســل مــن أن أنهض من الفراش، ترى هل لو أشرت لها بيدي ستنغلق؟!

هههه ...... لقد أثرت تلك الأحلام على رأسي...

لكن ... لمَ لا ؟! لأجرب...

نظــرت إلى الســتائر المفتوحــة لوهلــة، ثــم أشرت إليهــا بيــدي في اتجــاه غلقها...

لبرهــة اعتقــدت أن لا شيء ســيحدث، لكــن-لدهشــتي- بــدأت تتحــرك ولم يكن ذلك بفعل الهواء!!...

لقد انغلقت الستائر مع حركة يدي...!!!

ظلــت تلــك اللمحــات و مــا صرت موقنــة أنــه ذكريــات تتــدفق عــبر ممرات عقلي طيلة الأيام الماضية...

الليلــة الســابقة عــلى ســبيل المثــال رأيتنــي في غرفــة دوروثي أرتبهــا، وخطــر ببــالي تفقــد خزانــة ملابســها، كــل تلــك الأثــواب الفــاخرة التــي ترتــديها للحفــلات والنزهــات شــعرت أن مــن حقــي أنــا الأخــرى أن أمتلــك ولــو القليــل منهــا، مــن حقــي ألا تكــون حيــاتي محصــورة في خدمــة المنزل والجلوس على ضفة القناة، أنا أيضا ابنته!

ما ذنبي كوني جئت هذه الدنيا بغير الطريق الشرعي؟!

لِمَ يرفض الاعتراف بيّ ؟!

كنــت أشــعر بــالحنق حقــا، أنــا لا أحســدها لكننــي أســتحق أن تــتم مســاواتي بهــا، الفــارق الوحيــد ربمــا أن أمهــا مــن النــبلاء وأنهــا زوجــة شرعيــة للســيد كاســت - حتــى أنــه لا يســمح ليّ بمناداتــه أبي لا في العلــن أو السرــ- لــيس خطئــي أن أمــي مــن العامــة، أن أحــدا لا يعــرف نســبها أو من أين أتت قبل أن تستقر هنا...

حين وصلت بأفكاري إلى هذه النقطة كنت قد قررت مواجهة أمي والسيد كاست من بعدها، بما يجول في خاطري؛أغلقت باب غرفة خزانة الملابس، وذهبت أبحث عن أمي...

"أمي هل تملكين القليل من الوقت؟ أرغب بمحادثتك بأمر ما".

التفتت إلي ببطء تتأملني ومن ثم قالت بتوجس:

"ماذا ورائك أديلينا ؟".

ابتلعت ريقي بينما حاولت استجماع شجاعتي؛ لأدفع الكلمات المتحشرجة في حلقي خروجًا لشفتي قائلةً :

"ما الضير لو تحدثت مع السيد كاست؟ ربما استطعت إقناعه ب..."

قاطعتني والشرر يكاد يقفز من عينها هامسة بحدة :

"إقناعه بماذا ؟! ها.. ألم نتحدث مطولًا بهذا الشأن ؟"

ثم تنهدت محاولة تمالك أعصابها قبل أن تقترب مني، وتحيطني بذراعيها ناظرة مباشرة في عينيَ قائلةً بنبرة دافئة :

"يا صغيرتي أعلم أنك تشعرين بالظلم، لكن صدقًا لا تريدين لفت الأنظار إليكِ، تعلمين جيدا أن الموهبة التي تسري في دمائك قد تقضي على حياتك إن علم أحدهم بها...

ماذا لو أنك نجحت في إقناعه بالاعتراف بكِ؟ ماذا بعد؟ ستسلط أضواء المجتمع عليكِ....

صغيرتي...أنتِ لم تتقني بعد التحكم في قواكِ، ماذا لو فقدتِ السيطرة؟ ماذا لو حدث هذا وسط جمع من الناس؟

حينهـا لـن يكـون هنـاك حاجـة لمحاكمـة! وربمـا نفـذ هـؤلاء الحكـم بأنفسهم!

لا زلـتِ مندفعـة خلـف مشـاعرك ورغباتـك، يومًـا مـا ستنضـجين، سـتدركين أنـه لـيس كـل مـا يتمنـاه المـرء يدركـه، وإن بعـض الأمنيـات إن أتت جاءت بهلاك محقق"

تـلألأت الـدموع في مقلتـي بيـنما قلـت بصـوت مختنـق وأنـا أزيحهـا بعيدا عني :

"أنـتِ هـي السـبب، أنـتِ مـن أورثنـي تلـك اللعنـة، لمَ كـان عـليّ أن أكـون مثلـك؟ لمَ أتيـت بي إلى هـذا العـالم مـن الأسـاس إن كـان عـليّ أن أعـيش متخفية متلفتة خلف ظهري طوال الوقت ؟!"

خفضت بصرها أرضًا، وبدا أن كلماتي كانت جارحةً فغمغمت قائلةً :

"لم يكـن الأمـر بيـدي صـغيرتي، لم يكـن بيـدي، كنـت صـغيرة ربمـا أصـغر منـك حـين بـدأت الخدمـة في القصر، كـان السـيد كاسـت الابـن المـدلل، ومـا يطلبـه ينالـه - حتـى لـو كـان ذاك إحـدى الخادمـات- وأنـا ... أنـا لم يكـن لـديّ خيـار، كـان يعلـم بشـأن مـا أنـا عليـه، وكـان الأمـر خيـارًا بـين أن أرضخ أو أن أُحرق حية".

شـعرت حينهـا بغصـة في حلقـي؛ فانـدفعت خارجـةً إلى حيـث منزلنـا الواقـع عـلى أطـراف الضـيعة، كنـت قـد بـدأت في البكـاء ولم أرغـب لأحـد أن يرى عبراتي...

مــن بــين دمــوعي رأيــت الســيد كاســت واقفــا في منتصــف حديقــة القصرــ، يُشرف على إعدادت حفل الليلة...

تســـمرت مكـــاني للحظـــات، لكـــم تمنيـــت أن أرتمـــي بـــين أحضـــانه، أن يُشعرني بأبوته...

في تلـــك اللحظـــة رأيـــت دوروثي مقبلةً عليـــه، والتـــي مـــا إن رآهـــا حتـــى اتســـعت ابتســـامته وفـــتح ذراعيـــه عـــن آخـــرهما مشـــيراً إليهـــا بالـــدخول لملاذ حضنه الآمن...

شعرت بقلبي يُعتصر ألما، وددت لو صرخت عاليا :

"لمَ؟! أولست ابنتك أيضا؟! ألا يستطيع قلبك الشعور بما أشعر به؟!"

كنـــت أكـــور قبضـــة يـــدي وأضـــغطها بشـــدة بيـــنما أراقـــبهما، وعـــلى حـــين غـــرة فوجئـــت بـــه يبعـــدها عنـــه قلـــيلا ممســـكًا صـــدره مُعتصرَـــا إيـــاه بـــألم، اســـتطعت رؤيـــة وجهـــه يشـــحب تـــدريجيًا ومـــن ثـــم يســـقط أرضـــا يجاهـــد لالتقاط أنفاسه !

تملكنيَ الخوف، وسيطر على عقلي هاجس أنني من يفعل به ذلك عن غير وعي مني، وتأكد هذا عندما بسطت قبضة يدي المضمومة لأن حينها بدأ يعود كل شيء كما كان، عادت الدماء تتدفق لوجهه، وراح يتنفس بيسر أكثر...

عدت أواصل الركض مبتعدة نحو المنزل، كنت أرتجف خوفًا وغضبًا في آن واحد!

تلك كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالخوف من نفسي، ذاك كان اليوم الذي أدركت فيه أنني قادرة على أن أؤذي أحدهم، قادرة على القتل!

هذا الحلم أثار خوفي أكثر، هل أنا حقًّا قادرةً على الأذية لهذا الحد؟!

هل يأتي يوم ويتأذى أحدهم بسببي؟ يوسف على سبيل المثال؟!

يا للهول.. كم هو مزعج هذا الخاطر..

***

أديلينا

٥-سحر "أديلينا"

منذ حادثة الستائر وجاين تشعربالارتباك...

"هل كان ذلك من فعلي أنا ؟!!".

تساؤل دار في عقلها دونما توقف...وقررت المحاولة مع بضعة أشياء أخرى...

وجدت نفسها قادرة على غلق الأبواب، نقل الوسائد، حتى أنها صنعت لنفسها قدحًا من القهوة وجلبته عن بعد، كان يطير في الهواء...يتحرك وفق إرادتها...ويتبع إشارات يدها !

بدا هذا مألوفًا للغاية...الآن هي واثقة من كونها "أديلينا"، تشعر بالذكريات تنساب تدريجيًا عبر ممرات عقلها...

لا تزال هناك بعض قطع مفقودة من الأحجية، لكنها شعرت أن الصورة ستكتمل قريبًا...!

فجأة شعرت بالذعر

"ماذا لو اكتشف "يوسف" كوني ساحرة؟! هل سيشي بي ويقدمني للمحاكمة؟؟هل سيتركهم يحرقونني حية؟؟ لماذا ساعدني منذ البداية إذا كان سيسلمني لاحقًا للموت؟"

كانـــت ترغـــب في إخبـــاره بمـــا اكتشـــفته عـــن نفســـها، لكـــن تخشىـــ ردة فعلـــه، ظنـــت أنـــه ربمـــا يجـــب أن تستكشـــف أولًا كيـــف يمكـــن لـــه أن يتصرف قبل أن تبوح له بأي شيء على الإطلاق...

في طريقه لمقابلتها أخذ يوسف يحدث نفسه قائلًا :

"بـــدت"جاين" متـــوترة عـــلى غـــير العـــادة الفـــترة الســـابقة، خاصـــة بعـــد أن عدنا من"إكستر - ديفون"...

لم أرَ أن المـــــذكرات حـــوت شـــيئًا مفيـــدًا فـــيما يتعلـــق ب"جـــاين"، لكـــن... لكـــن أشـــعر أنهـــا تخفـــي شـــيئًا مـــا، تخشىـــ شـــيئًا مـــا، عـــلى كـــلٍ، سألتقيها الآن وسنتناول الغداء سويًا...

أنـــا ألـــتمس لهـــا العـــذر، فـــرغم كـــل شيء، أنـــا غريـــب عنهـــا، حتـــى وإن كنت حاولت إثبات حسن نواياي، فلا سبيل فعليًا لها لتتأكد...".

كـــان أمرهـــا يشـــ غله كثـــيراً، يقلـــق بشـــأنها ويتمنـــى لـــو أنـــه يملـــك المزيـــد ليساعدها...

كانـــت واقفـــة تنتظـــره في مـــدخل البنايـــة احـــتماءً مـــن الأمطـــار التـــي بـــدأت تتساقط لتوها..فأسرع الخطى نحوها قائلًا :

-"هل تأخرت عليكِ كثيراً ؟".

-"مطلقًا... أنا من نزلت مبكرًا بعض الشيء ...".

فابتسم وقال :

-"إذن... هلا أسرعنا حتى لا نبتل ؟".

بادلته الابتسام قائلةً :

- "بعــــض البلـــــل لــــن يضـــير أحـــدًا...دعنـــا نتمشى ـــ بتـــؤدة تحـــت المطـــر...نرفـــع رؤوســـنا إلى الســـماء مغمضي ـــ الأعـــين...نأخـــذ نفسَـــاعميقًا نستنشـــق فيـــه عبـــير الأرض الرطبـــة...ولنغفـــل للحظـــات عـــن كـــل مـــا قـــد يثقـــل الكاهـــل... نسرـــق وهلـــة مـــن الـــزمن نتخيـــل فيهـــا أننـــا أحرار...نحلق لثوان قبل أن نرتطم مجددًا بالواقع على الأرض..."

كانـــت فعـــلًا مغمضـــة العينـــين، رأســـها مرفـــوع للســـماء، تأخـــذ شـــهيقًا عميقًا...

-"أتحبين المطر؟!"

-"لا أحبه...بل أعشقه.."

اتسعت ابتسامة يوسف وقال :

-"ها هو جزء من ذاكرتك قد عاد إذن"

ارتعاشـــه عـــابرة بـــدت عـــلى ابتســـامتها قبـــل أن تقـــول بضـــحكة بـــدت عصبية بعض الشيء:

-"وها قد عدنا إلى الواقع على الأرض..".

شـــعر أنـــه قـــد أفســـدالأمر، لـــذا تلعـــثم بعـــض الشيـــء، وهـــو يحـــاول الاعتذارقائلًا :

-" أنا... آسف..لم أقصد.. كنت فقط..."

قاطعته قائلةً :

-"لا بأس... ليس الأمر بهذا السوء.. هيا بنا.. فأنا أتضور جوعًا...".

لم تعـــرف كيـــف تبـــدأ في طـــرح أســـئلتها.. لـــذا-وفي خـــلال انتظـــارهما للنـــادل أن يلبـــي طلـــبهما- تر كـــت الكلـــمات تـــتراص خروجًـــا مـــن فمهـــا دون أدنى ترتيب أو صياغة...

-" "جو"... كنت أريد أن أسألك عن شيء ما"

ابتسم وقال :

-"هاتِ ما عندك.... كلي آذان مصغية "

-"امممـــــم.. كنـــــت... أتســـاءل.. عـــــن.. حســـنًا.. عـــن محـــاكمات الساحرات...تلك التي تحدث عنها"توماس هدسون" في مذكراته..."

ضحك لبعض الوقت قبل أن يقول من وسط ضحكاته :

-"هل أنتِ جادة؟ محاكمات الساحرات؟!"

تطلعت إليه ببعض الدهشة وقالت:

-"جادة تمامًا... لست أدرك ما المضحك في سؤالي !!"

تلون وجهه ببعض الحمرة وتنحنح قائلًا :

-"اعـــذريني... لكننـــي.. أســـتمر بنســـيان أمـــر فقـــدانك للـــذاكرة..ولم أعتقد أنه قد يخطر ببالك مثل هذا السؤال...

نحـــن في القـــرن الحـــادي والعشرـــين...لقـــد انـــدثرت تلـــك المحـــاكمات ...منذ ثلاثة قرون على الأقل.."

شـــعرت بـــبعض الراحـــة بعـــد إجابتـــه، فبالنســـبة إليهـــا عنـــي هـــذا أنهـــا بأمان من حكم الإعدام حرقًا...

استرخت في مقعدها نوعًا ما... ومن ثم سألته :

-"وماذا عنك؟ ما الذي تظنه بشأن السحر؟"

-"حسنًا... أي نوع من السحر تعنين؟ التعاويذ والتمائم وما شابه..أم ماذا ؟"

- "أعني مثلًا القدرة على تحريك الأشياء عن بعد...السفر في الزمن...هذا النوع من الأمور"

-"في الواقع أثق أن هناك فئة من الناس لديهم القدرة على تحريك الأشياء عن بعد، عن طريق تركيز قدراتهم الذهنية و العقلية...لا أظن هذا سحرًا... أما عن السفر في الزمن... فلا أدري صراحة... يبدو هذا كضرب من المستحيل.. لكن...من يدري.. فيومًا ما كان السفر إلى الفضاء ضربًا من الخيال".

ابتسمت ولم تعقب، وإنما تمتمت بصوت غير مسموع لسواها قائلةً :

"ربما هناك أمل في أن يتقبلني"جو"بما أنا عليه حقًا"

- "لكن لمَ تلك الأسئلة عن السحر ؟!"

اتسعت ابتسامتها وقالت :

-"إنه الفضول وحسب... مجرد فضول".

"أحقًا كان مجرد فضول؟ لقد بدت"جاين"مهتمة كثيراً بموضوع السحر هذا...!

شـــعرت بـــالتردد في نـــبرة صـــوتها عنـــد الســـؤال عـــن المحـــاكمات، بـــدت وكأنهـــا ترغـــب في البـــوح بشيـــء ما،ولكنهـــا تراجعـــت، أنـــا الآن مـــن يقتلـــه الفضول...

من قال إن الرجال لا يشعرون بالفضول ؟!".

لم يســـتطع أن يقـــاوم فضـــوله أكـــثر مـــن هـــذا، عـــلى الـــرغم مـــن أنهـــما افترقـــا منـــذ بضـــع ســـاعات فحســـب، إلا أنـــه قررالاتصـــال بهـــا لطلـــب لقـــاء قريـــب، كـــان يحـــاول البحـــث عـــن حجـــة مقنعـــة لطلبـــه، ربمـــا يتحـــدث عـــن ترتيـــب موعد في مكتب توظيف أو ما شابه...

وما كاد يخرج هاتفه من جيبه حتى وجده يرن !

وكانت هي !!

-"مرحبـــا "جـــاين" ...يالهـــا مـــن مصـــادفة... كنـــت عـــلى وشـــك الاتصـــال بكِ"

-"حقًا؟ ...لمَ ؟ ما الأمر ؟"

بحنق تمتم بصوت غير مسموع قائلًا لنفسه :

"تبًا لك يا لساني... لمَ لا تفكر قبل أن تنطق...لم أحكم حجتي بعد"

من ثم حاول استعادة رباطة جأشه ورد عليها قائلًا :

-"آآ...امممـــم...أخبرينـــي أنـــتِ أولًا...هـــل هنـــاك مـــا تحتاجينـــه؟ هـــل هناك مشكلة؟"

-"لا... لا مشكلة على الأطلاق... كنت... كنت فقط.."

-" كنتِ ماذا؟"

-"أرغب في لقائك..هناك ما أريد البوح به..."

-"العشاء إذن؟"

-"حسنا...سأنتظرك"

قبل أن تتصل به كانت قد اتخذت قرارها، ستخبر"يوسف" بكل ما توصلت إليه واستنتجته...!

إنه الوحيد الذي تعرفه حقًا في هذا العالم، في هذا الزمن..

هو من تولى رعايتها، أمّن لها مسكنًا، في الواقع تنازل لها عن مسكنه مؤقتًا...تحمل حيرتها، خوفها، وجهلها التام بكل ما حولها...

قررت أنها ستخبره بشكل عملي...

قطع أفكارها وتركيزها في كيفية إعلامه بالأمر صوت جرس الباب...

-"تفضل بالدخول"جو".. ".

-"ألن نخرج لتناول العشاء ؟"

-"لقد أعددت أنا الطعام...أتمنى أن يعجبك طهوي"

دعته للجلوس حتى تُتم إعداد الطاولة، لكنه أصر على المساعدة، كان في طريقه للمطبخ حين وجد الصحون تحلق في الهواء، تتجه وحدها نحو طاولة الطعام...

من فوره التصق ظهره بالحائط وصاح في دهشة :

-"جااين... هل.. هل رأيت هذا ؟!!"

خرجت من المطبخ ويدها لا زالت في الهواء توجه الصحون لتهبط بسلام على الطاولة، ومن ثم قالت :

-"في الواقــع "جــو"... لقــد أردت أن تــرى هــذا...هــذا مــا أردت البــوح به لك"

قال- وهو لا زال مبهوتًا-:

-"لست...لست أفهم ما ترمين إليه"جاين" "

فقالت مصححة:

-""أديلينا"..."

-"عذرًا ؟!"

-"فــيما مضىــ أخبرتنــي أن "جــاين" اســم مؤقــت لحــين أســتعيد ذاكرتي..."

-"أتعنين...؟"....

-"أجل... لقد استعدت جزءاَ من ذاكرتي... أنا هي.."أديلينا"..."

كــل مــا دار في ذهنــه في هــذه اللحظــة هــو أن "جــاين" قــد فقــدت صــوابها تمامًــا!!، تلــك المســكينة تظــن نفســها ســاحرة أعــدمت في القــرن السـابع عشرــ! إنهــا عــلى مايبــدو مقتنعــة بهــذا تمامًــا، حتــى أنهــا أقنعــت عقلهــا أن يســتخدم قدراتــه ويصــل لأقصىــ تركيــز حتــى اســتطاع تحريــك الصحون!!

-""جــو"... أقســم لــك... في الفــترة الأخــيرة... بعــد عودتنــا مــن "ديفــون".. راودتنــي الكثــير مــن الــرؤى... ومضــات عــن حيــاتي السابقة، أنا "أديلينا"..."

أخـــذت تحـــكي وتحـــكي عـــن تلـــك الـــرؤى -المزعومـــة في ظنـــه-... أنشـــأت حيـــاة كاملـــة، صـــنعت رابطًـــا بينهـــا وبـــين ذاك الرســـام، وبـــين صـــاحبة "البورتريه" "دورثي كاست"...

-"........بمـــا أن البورتريـــه يحمـــل ملامحـــي فهـــذا يعنـــي أننـــي قمـــت حقًـــا بالتبديل.. ونجحت في ذلك...".

كلـــما تحـــدثت أكـــثر عـــن الأمـــر كلـــما ازداد يقـــين يوســـف أنهـــا تحـــاول تبرير كل الأمور؛ لتتلاءم مع الحياة التي اختلقتها في رأسها...!!

-"فلنفرض جدلًا "جاين"... ".

قاطعته مصححةً بعند وإصرار:

-" "أديلينا" "

-"لنفـــرض جـــدلًا.."أديلينا"... أنـــكِ محقـــة...وأنـــك مـــن تـــدعين أنـــك هـــي، وفعلـــت كـــل تلـــك الأشـــياء.. مـــا الـــذي جـــاء بـــك إلى هـــذا الـــزمن؟ إلى المستقبل حسب ادعائك؟"

بـــدا وكـــأن ســـؤاله قـــد صـــدمها، لم تضـــع في حســـبانها هـــذه النقطـــة، وكـــأن توقهـــا الشـــديد ألا تصـــبح مجهولـــة الهويـــة صـــنع لهـــا عالمًـــا متكـــاملًا بنتـــه مـــن خيـــوط البحـــث المهترئـــة التـــي ســـارا خلفهـــا، ونســـجت حولهـــا عديـــدًا مـــن التفاصـــيل لتـــدعم بنيانهـــا، إلا أنهـــا غفلـــت عـــن كيفيـــة وصـــولها لـــزمن مغاير...

-"آ... لســـت أدري...لازالـــت هـــذه الجزئيـــة مـــن ذاكـــرتي مفقـــودة، لكنني على ثقة بأنني سأتذكر...".

لم يحــــاول يوســــف أن يطـــرح لهـــا مـــا دار في ذهنـــه مـــن شـــكوك وافتراضـــات حـــول ذاكرتهـــا الخياليـــة تلـــك مـــن وجهـــة نظـــره خشيـــ أن يحـــدث لهـــا انتكاســـة مـــن نـــوع مـــا، فبعـــد كـــل شيء هـــو لايعـــرف بعـــد مـــا تسبب في فقدانها الذاكرة في المقام الاول...

لا يســتطيع أن ينكــر أنــه حــين رآهــا لأول مــرة تحمــس كثــيراً نظــراً للشــبه الشديد بينها وبين لوحته من المزاد...

كان يحدث نفسه في صمت قائلًا :

"لكـــن.. فلـــنكن واقعيـــين -حتـــى وإن اتســـمتُ أنـــا بـــبعض الحماقـــة في البـــدء - لا يمكـــن أبـــدًا افـــتراض أن تلـــك المرســـومة في "البورتريـــه" هـــي تلك التي تقطن شقتي حاليًا..

صـــدقًا، هـــذا ضرب مـــن الجنـــون، ولا أريـــد أن تصـــبح شـــهرتي هـــي (مجنـــون صـــاحبة "البورتريـــه") لـــيس هـــذا مـــا كنـــت أطمـــح إليـــه في مسيرة حياتي...".

طلـــب منهـــا أن تخلـــد للراحـــة وكتـــب لهـــا وصـــفة طبيـــة بـــبعض أنـــواع المهدئات...

حينها نظرت له بعين التمعت فيها الدموع وقالت :

-" "يوســـف".. صـــدقني.... أنـــا لســـت بمعتوهـــة أو مصـــابة بمـــس مـــن الجنون"

كانـــت تتحـــدث بجديـــة تامـــة حتـــى أنهـــا نـــادت اســـمه بشـــكل رســـمي وتلك تقريبا كانت مرتها الأولى...

ربت على كتفها وقال :

-"مـــن ذكـــر العتـــه او الجنـــون؟! لقـــد قلـــت فقـــط أنـــك بحاجـــة للراحة...وهذا من وجهة نظر طبية بحتة"

مطـــت شـــفتيها، وأومـــأت برأســـها إيمـــاءة بغـــير ذي معنـــى، ظلـــت بعـــدها صـــامتة، فحـــاول كسرـــ ذاك الصـــمت بقولـــه إن الطعـــام لذيـــذ حقًـــا، ولابـــد أنها كانت طاهية محترفة في وقت ما..

حاولـــت الابتســـام لكـــن ابتســـامتها جـــاءت باهتـــة فـــاترة ولم تـــزد عـــن قول: أشكرك...

كانـــت تلـــك إشـــارته للرحيـــل، فقـــد بـــدا أنـــه لا يوجـــد المزيـــد لقولـــه في الوقت الراهن..

***

مـــرت بضـــعة أســـابيع الآن مـــذ أخـــبرت "يوســـف" أنهـــا "أديلينـــا"، بـــدا واضحًا من ردة فعله أنه لا يصدقها، وإن حاول مجاراتها...

شيء مـــا شـــعرت أنـــه انكسرـــ داخلهـــا بعـــدم تصـــديقه -رغـــم تفهمهـــا لـــذلك نوعًا- كانت تظن أنه سيستوعب الأمر بطريقة ما..

شـــعرت أنهـــا ربمـــا تسرـــعت في إخبـــاره، أنهـــا ربمـــا كـــان عليهـــا أن تحـــاول الســـفر في الـــزمن أولًا، واكتشـــاف بعـــض الأمـــور المســـتقبلية، التـــي لم يخبرها إياها ثم تخبره بها، عله في هذه الحال يصدقها...

طيلة الفترة الماضية حاولت، حاولت كثيراً فعل هذا...

لكنهــا فشــلت فشــلًا ذريعًــا، ليســت تــذكر كيــف كانــت تفعلهــا، تلــك الـــرؤى أو اللمحـــات الماضـــية أشـــبه بصـــور معروضـــة، لم تعطهـــا ولـــو تلميحًـــا عـــن آليـــة الانتقـــال في الـــزمن، وإلى الآن ليســـت تـــذكر كيـــف وصلت إلى زمن يبعد عن زمنها بضع مئات من السنين...

***

لم يرها منذ عدة أيام الآن، ربما أسبوع أو أقل قليلًا..

كـان يغطـي مناوبتـه في المشـفى، ومناوبـة زميـل لـه تـزوج وسـافر لقضـاء شـــهر العســـل يقضيـــ وقتًـــا ممتعًـــا ، ويوســـف هنـــا لا يكـــاد يحظـــى بساعتي نوم متصلتين...كان يشعر أنه...يفتقدها...

لا يعلم أهو التعود على لقياها يوميًا، أم أنه حقا يشتاق إليها؟!

-"يا للهول "جو"... تبدو كمدمن لم يتناول جرعته..."

-"هههـــه .... كنـــت لتبـــدو كـــذلك لـــو أنـــك لم تـــنم قرابـــة أســـبوع "ألفين"..."

-"أهي قلة النوم فحسب أم غياب مجهولتك ؟"

-" "ألفـــين"... كـــف عـــن هـــذا... لا شيء يجـــري بينـــي وبينهـــا...نحـــن.. مجـــرد صـــديقين الآن... وأحـــاول مســـاعدتها فحســـب عـــلى تـــذكر هويتها"

-"عيناك تخبران عكس لسانك "جو"...

بالمناسبة...لقد تحدثت مع مدير شئون العاملين.."

-"بشأن ماذا ؟!"

-"بشـأنها...لقـد توسـطت لهـا لتعمـل في اسـتقبال العيـادات...لـن تبقـى مسئولًا عنها ماديًا طوال الوقت...إلا إذا..."

قطـع جملتـه وغمـز يوسـف بعينـه فحدجـه ذلـك الأخـير بنظـرة ناريـة – لم يـدرِ حقًـا لمَ اسـتفزه مقصـد"ألفين" رغـم علمـه بـأن هـذه طبيعتـه- فتراجـع "ألفـين"إلى الخلـف رافعًـا كفيـه أمامـه، وكأنمـا يحتمـي بهـما منـه وهو يقول ضاحكًا :

حسنا.. حسنا .. لا بأس لن آتي على ذكر هذا الموضوع ثانية ...

اليوم..."

وانطلق يركض خارج الغرفة وهو لا يزال يضحك...

***

اسـتلمت أديلينـا -كـما كانـت تصر علـى أن تـتم مناداتهـا-عملهـا بمشفى"سـانت مـاري" منـذ قرابـة الشـهر الآن، واليـوم ستسـتلم أول راتب لها..

ورغـم أنـه يفـترض بهـا أن تكـون سـعيدة ومتحمسـة، إلا أنهـا كانـت تشعر بعكس ذلك...

لم تكتشـف بعـد سـبب وجودهـا في هـذا الـزمن أو كيفيتـه، لم تتوصـل لتقنيـة الانتقـال عـبر الـزمن ... ولم تفلـح في إقنـاع "يوسـف" بحقيقـة مـن تكـون حسـب يقينهـا، تعلـم أنـه يتظـاهر بتفهمهـا، لكنهـا تعلـم أيضـا أنه لا يصدق، ليس بعد...

شـعرت أنــه مــن الجيــد أن تكــون مســتقلة ماديًــا، فقــد أثقلــت عليــه كثــيراً، وإن احتمــل"ألڤين" بقــاءه معــه لفــترة، فــذلك لــن يطــول إذ أنــه على وشك الزواج ولن يرحب بوجود"يوسف" بالتأكيد...

لذا فهي من يجب عليها الانتقال...!

الميـزة الأخـرى لهـذا العمـل مـن وجهـة نظرهـا هـو أنـه يتسـنى لهـا رؤيتـه كل يوم...

تشـعر بقلبهـا يـتراقص طربًـا لمجـرد سـماع اسـمه يـتردد حولهـا، شـعور الفراشــات ذاك في معــدتها حــين تــراه قادمًــا مــن بعيــد، هــل... هــل وقعت في حبه ؟!!

اليــوم قــررت أن تطلــب منــه مســاعدتها في البحــث عــن مكــان مناســب للانتقال إليه...

-"ألا تــرين أ ن الوقــت لا يــزال مبكــرًا عــلى الانتقــال؟ لتــوك حصــلتِ عــلى راتبك الأول..."

-"لا.. إنــه الوقــت المناســب... لقــد أثقلــت عليــك بمــا يكفــي... يجــب أن أنتقــل ليتســنى لــك العــودة لشــقتك ... يكفــي مــا تكبــدت مــن عنــاء لأجلي"

شـعرت أنــه يحـاول كـتمان غضـبٍ مـا انـدلع داخلـه وهـو يضـغط عـلى الكلمات قائلًا :

-"أثقلــتِ عــليّ؟!! مــا الــذي دفعــك لقــول هــذا ؟! هــل حــدث وأن اشتكيت إليكِ؟ هل سمعتني أتذمر؟!"

- "لا يتوجـب عليـك أن تفعـل أيًـا مـن ذلـك لا تحتـاج الشـمس لأن تشـير إلى نفسها لأعرف أنها موجودة..."

شـعرت أن أوداجـه تنـتفخ، وجهـه يكتسيـ بـالحمرة، يحـاول أن يأخـذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول :

-"دعينا نؤجل الحديث في هذا الأمر رجاء...".

-"لا.. بل دعنا ننتهي منه الآن"

لأول مـرة منـذ التقيـا تـراه بمثـل تلـك العصـبية، لأول مـرة يصـيح في وجهها قائلًا :

-"هـل قصرتُ معـكِ؟... لا تـزالين بحاجـة للرعايـة لا زلـتِ لا تـذكرين شـيئًا فعليًـا حقيقيًـا عـن نفسـك... لا تملكـين أوراق هويـة ولا تعـرفين هويتـك أصـلًا لتسـتخرجي لهـا أوراقًـا رسـمية... أم تـودين أن أبحـث لك عن استئجار من الباطن ومضايقات تنتج عنه ها.."

شعرت بالوجوم للحظات، ومن ثم صاحت فيه هي الأخرى قائلةً :

-"لست طفلة "يوسف"... لست وصيًا عليّ..."

نظر إليها لوهلة ومن ثم اندفع خارجًا نحو بوابة المشفى...!!

كـان يفـترض بـه في هـذا اليـوم أن يوصـلها للمنـزل ومـن ثـم يعـود، لكـن بـدا أنهـا أثـارت غضـبه حقًـا، فـأراد أن يبتعـد وينفـرد بنفسـه حتـى يهدأ...

كـان يشـعر بأنهـا مسـؤولة منـه ومـا طلبتـه منـه أشـعره بـالنقص بشـكل ما، بالتقصير...

كـان غاضـبًا عـلى نفسـه قبـل أن يكـون غاضـبًا منهـا، شـعوره بـالعجز عـن مساعدتها، عن استعادة ذاكرتها...

كان يخشى عليها.. ممَ ؟ لا يعلم تحديدًا.. ربما من نفسها...

لم تُـرِ د أن يـذهب وهـو لا زال غاضـبًا منهـا، رغـم أنهـا لم تعـرف مـا الـذي يمكن أن تقوله لاسترضائه...

انطلقـت تـركض خلفـه محاولـة اللحـاق بـه، ومـا إن خرجـت مـن البوابـة جالت ببصرها في الأنحاء حتى رأته يعبر الطريق للجهة المقابلة...

إشـارة مـرور المشـاة حمـراء... تشـعر بقلبهـا ينقـبض، يكـاد ينخلـع مـن مكانه، تشعر وكأن أمرًا رهيبًا سيقع...!!

في ذات اللحظـــة، ســـمعت صـــوت صريـــر عجـــلات عـــالٍ، اصـــطدام عنيف...

لتجـــد بعـــدها جســـد "يوســـف" يطـــير في الهـــواء وبيـــنما يهـــبط تصـــدمه ســـيارة أخـــرى؛ ليعـــود ليحلـــق لبضـــع ثـــوانٍ أخـــرى قبـــل أن يـــرتطم بقســـوة بالرصيف..

أرادت أن تصرخ باسمه، لكن صوته اختنق بحلقها...

ركضـــت نحـــوه بســـاقين رخـــوتين، لتجـــده ملقـــى عـــلى الأرض، بـــلا حـــول ولا قـــوّة، يســـبح في بركـــة مـــن دمائـــه، شـــبه غائـــب عـــن الـــوعي، يحملـــق في السماء بعينين غائمتين...

احتضـــنت رأســـه ويـــدها تتخلـــل خصـــلات شـــعره الغارقـــة في الـــدماء اللزجة.. وبصوت أقرب للبكاء أخذت تهمهم قائلةً:

-" "يوســف" أرجــوك... ابــقَ...أنــا آســفة...لم اقصــد إغضــابك...أرجــوك "يوسف" "

بدا أنه لا يدرك وجودها، وأخذ يتمتم ببعض كلمات لم تفهمها...

والتقت عيناهما للحظة قبل أن يرتخي جسده ...

وتختفي من عينيه لمعة الحياة...!!

-"كيــف يمكــن لي أن أتــنفس... كيــف ليّ أن أحيــا... "يوســف" أنــا أشــعر بالاختناق دونك.... أرجوك عد...أفق رجاء... هيا لا تتركني الآن"

شعرت بأن أحدهم يسحبها بعيدًا عن جسده المسجى أرضًا...

وآخر يربت على كتفها...

-"لقد رحل... أنا آسف... لكنه رحل"

أرادت أن تصرــخ ألــف ألــف صرخــة، لكــن الصــوت اختنــق بحلقهــا، فقط دموعها انهمرت كالشلالات...

الأرض تميــد مــن أســفلها، عــاجزة عــن الوقــوف بثبــات، رافضــةً التصــديق أن هذا المسجى أمامها قد رحل بلا عودة ...

وظلت تردد مغمغمةً بلا انقطاع بصوت مبحوح :

"يجــب أن أعــود، لابــد أن أعــود في الــزمن لإنقــاذه، لا بــد وأن أعــود لإنشــاء خــط زمنــي مغــاير، ربــاه ذكــرني كيــف أفعلهــا لا أســتطيع أن أفقده، لا.. لا أستطيع..."

***

٦- فقط لو أعود

بكيتــه كثــيراً حتــى جفــت مــدامعي وبقــي قلبــي يــذرف بــدل الــدمع الدماء...

فقــط لــو أننــي أجلــت الحــديث كــما رغــب، أو لــو أننــي لحقــت بــه قبــل عبوره الطريق ....، فقط لحظات

أبعده فيها عن مسار السيارة التي أودت بحياته..

أاااه...فقط لو أعود...

لم أحتمــل البقــاء في منزلــه، كــل شيء هنــا يــذكرني بــه، أكــاد أســمع صــوته يتردد في أذني...

ارتديت معطفًا وخرجت أسير على غير هدى تحت المطر...

فجــأة وجــدتني في شــارع جــانبي مــا، شــعرت برجفــة خــوف تسرــي في أوصالي مع انتباهي لتربص أحد ما بي... كانا اثنين!!

حاولــت تضــليلهما، لكــن لم أنجــح في ذلــك، في النهايــة وجــدتني محــاصرة في أحد الأزقة من قبل هذين الاثنين، بدا أنهما محترفي إجرام...!

أغمضــت عينــيّ في قــوة وتمنيــت في عقــلي أن يتجمــد الــزمن بهــما لأســتطيع الإفــلات -لدهشــتي- توقــف صــوت حــركتهما بغتــة، كــما توقــف صوت المطر أيضًا، فتحت عينيّ لأجد...

حسنًا لا أدري كيف أصف ذلك، كانا كتمثالين، أو كصورة تم تثبيتها أثناء الحركة، حتى إن قطرات المطر كانت معلقةً في الهواء وكأنما المشهد كله تم تثبيته وصرت أنا المتحرك الوحيد فيه...

لم أحاول البحث عن تفسير للوقت الحالي، فالفرصة قد سنحت للإفلات ولا أدري كم ستدوم وعليّ استغلالها...

انطلقت أعدو عائدة للشقة وما إن ابتعدت بشكل آمن كفاية، حتى عاد كل شيء للحركة مجددًا، كنت أسمع من بعيد صوت سبابهما الساخط وتساؤلهما كيف اختفيت من أمامهما وكأنني تبخرت...!

كل ما دار في رأسي وقتها...

"تجميد الوقت هو من قدراتي !!"

عدت إلى شقة "يوسف" ألهث، بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي، لا بد أنني ركضت مسافة طويلة للغاية، كنت أركض وكأنما شياطين الجحيم تطاردني...

لكنني استفدت، اكتشفت قدرة أخرى غير التحريك عن بعد، إنها تجميد الوقت...

يبدو أن عليّ أن أرغب بشدة في أمر ما لأستطيع التحكم فيه، ربما هذا هو ما عليّ فعله لأعود في الزمن، لأستعيد "يوسف"...!!

عليّ أن أحاول أكثر فأكثر حتى أتمكن منه وأتقنه...

لقد كان اليوم طويلًا، مرهقًا.. لقد شهدت موت"يوسف" صباح اليوم، وهذا وحده كفيل بالقضاء على أعصابي...سأحاول الخلود للنوم وغدًا يوم آخر...

***

ستة أشهر مضت منذ رحيل يوسف...

ستة أشهر لم أتوانَ فيهم عن محاولة إتقان التحكم في الزمن،ما يجعلني قادرةً على تجميده حري به جعلي قادرةً على التنقل خلاله ذهابًا وإيابًا في أي اتجاه أردت...

اليوم كان مختلفًا عن بقية الأيام ، فقد تذكرت، أجل تذكرت كيف وصلت إلى هنا...!!

تذكرت عودتي إلى ما بعد مولدي ببضع ساعات، حملت نفسي الرضيعة وأبدلت مهدها بمهد"دورثي"-أختي غير الشقيقة - كنت لتوي قد أتممت ما عدت لأفعله، بالكاد كنت أضع "دورثي" في المهد الخاص بي في ركن غرفتي بعد أن أبدلت ملابس الطفلتين مع بعضهما، لأجد"توماس هدسون" - طفلًا لم يتجاوز الخمس سنوات - واقفا أمامي يحملق فيّ بدهشة فاغرًا فمه... اضطربت، لم يكن من المفترض أن يراني أحد على الإطلاق، حرت في أمري!! ....ماذا افعل؟ ...ولم يتفتق ذهني لحيلة غير تلك الحيلة!!

ربت عليه وأخبرته أن هذا مجرد حلم وأنه يسير نائمًا، وعليه العودة لمنزله واستكمال نومه فالوقت قد تأخر...

لكنه قال :

"لم أكن نائمًا، جئت أرى الطفلة الجديدة".

فأجبته قائلةً :

"تستطيع القدوم لرؤيتها غدًا، عليك الذهاب الآن وإلا عاقبتك أمك".

لم يبدُ عليه الاقتناع لكنه غادر الغرفة تاركًا الباب مواربًا خلفه...

كان عليّ أن أقوم بتجميد الوقت أولًا لأستطيع من ثم السفر إلى حاضري...

لكنني شعرت بأحدهم يتسلل خلسة، إنها تبدو كخطوات شخص بالغ !! عليّ الرحيل حالًا، إن كنت لا أريد أن أعدم حرقًا..

كنت متوترة للغاية، لذا فقد حاولت تجميد الوقت والقفز في الزمن في آن واحد...

وكان هذا هو خطئي ...

أفقت لأجدني واقفة على الرصيف في"بادينجتون" ولكن في العام ٢٠١٦، كنت مرتعبة، لا أذكر من أكون، ربما هذا هو أثر التبديل، الذاكرة أرادت أن تحمل ذكريات "دورثي"، لكنها لم تعشها فعليًا، وإنما عاشت ذكريات مغايرة بقت في العقل الباطن ولم تُمحَ كما كان يفترض بها...

وصلت لهذا الزمن في اللحظة المناسبة لألتقي "يوسف"...!

عـــليّ أن أتمـــرن عـــلى القفـــز في الـــزمن جيـــدًا؛ لأعـــود للحظـــة المناســـبة لإنقاذه،لا بد لي من أن أعيده...

مـــن الجيـــد أننـــي تمرنـــت كثـــيراً عـــلى التجميـــد، بقـــي لي التركيـــز عـــلى القفزات الزمنية!!

***

أخـــذ الأمـــر وقتًـــا أطـــول مـــما توقعـــت أو تخيلـــت، مضى الآن مـــا يقـــرب مـــن أربعـــةأعوام عـــلى وفـــاة "يوســـف"، اعتـــدت الحيـــاة في هـــذا الزمـــان، اســـتقررت في عمـــلي في مشـــفى "ســـانت مـــاري" ولا زلـــت أســـكن شـــقة "يوســـف" ولم يمـــانع صـــاحب الشـــقة في هـــذا، لم أرغـــب في أن أتركهـــا حتى يعود هو إليها...

"ألفـــين" تـــزوج منـــذ مـــا يقـــرب مـــن ثلاثـــة أعـــوام، وســـمّى طفلـــه باســـم "جوزيـــف" تيمنًـــا ب"يوســـف".. لا زال يتـ صـــل بي عـــلى فـــتراتِ ليطمـــئن عـــلى أمـــوري، هـــو الآخـــر لازال يعمـــل في المشـــفى رغـــم أن لـــه الآن عيادته الخاصة التي يشارك فيها زميلًا له..

أخـــيراً بعـــد كـــل هـــذا الوقـــت اســـتطعت أن أنتقـــل في الـــزمن ذهابًـــا وإيابًـــا، صـــحيح أننـــي لم أتقنـــه تمامًـــا كـــما أرغـــب، لكننـــي لم أعـــد أحتمـــل الآن انتظارًا أكثر...

أدرك الآن أنـــه لأنجـــح في الانتقـــال عـــبر الـــزمن عـــليّ أولًا أن أقـــوم بتجميـــد الوقـــت والتأكـــد مـــن ذلـــك، ومـــن ثـــم أركـــز تفكـــيري عـــلى الزمـــان والمكـــان

الـــذي أرغـــب في الانتقـــال إليـــه، عـــليّ أن أكـــون في شـــدة التركيـــز، تشـــتت انتباهي ولو لبضع ثوانٍ قد يغير الزمن أو المكان الذي أنتقل إليه..

لقـــد عزمـــت أمـــري، الليلـــة ســـأذهب إلى حيـــث فقـــدت "يوســـف" وســـأعود لاســـتعادته، ســـأمنعه مـــن عبـــور هـــذا الشـــارع، وســـأفعلها قبـــل أن تخرج نفسي الموجودة في هذا الزمن من المشفى..

راجعـــت أحـــداث هـــذا اليـــوم في ذهنـــي آلاف المـــرات.. يجـــب أن أحـــرص على عدم حدوث أي أخطاء..

عـــليّ أن أكـــون هنـــاك قبيـــل الثانيـــة ظهـــرًا، ســـأنتظره، سأشـــغله، أعتـــذر منـــه، أفعـــل كـــل مـــا يمكننـــي فعلـــه لأمنعـــه مـــن العبـــور.. ســـأغير مجـــرى الزمن عند تلك اللحظة.

أنفـــاسي تتســـارع وكأنهـــا في ســـباق مـــاراثون، أقـــف عـــلى الرصـــيف الآن حيـــث رأيـــت "يوســـف" يفقـــد حياتـــه منـــذ أربعـــة أعـــوام مضـــت، الصـــمت يســـود حتـــى أننـــي أســـمع صـــدى ضربـــات قلبـــي، الـــذي يكـــاد يقفـــز خـــارج ضـــلوعي، الســـاعة تجـــاوزت منتصـــف الليـــل.. عـــليّ أن أبـــدأ الآن، أغمضـــت عينـــيّ، فليتجمـــد الوقـــت الآن، فتحـــت عينـــاي، لا ســـبيل لي أن أتأكـــد مـــن نجـــاحي في ذلـــك إلا النظـــر في ســـاعة يـــدي -تلـــك التـــي أهـــداني إياها "يوسف" يومًا ما- لقد توقفت عقاربها، أظنني فعلتها...

الآن عـــليّ أن أركـــز، أريـــد أن أكـــون في مكـــاني ذاتـــه قبـــل أربعـــة أعـــوام، الثانية ظهرًا...!!

أغمضـــت عينـــيَ، أشـــعر الآن بجزيئـــات جســـدي تبـــدأ عمليـــة الانتقـــال، أحـــاول الاســـترخاء... لكننـــي متـــوترة للغايـــة، هـــلا هـــدأتِ أرجـــوك... فجـــأة صـــوت مـــواء قطـــة، تبًـــا، لقـــد تشـــتت انتبـــاهي وفتحـــت عينـــاي، هـــل كانـــت ســـاعة يـــدي معطلـــة؟ ألم أنجـــح في تجميـــد الوقـــت تمامًـــا؟ مـــن أيـــن أتـــت تلك القطة؟

تظلم الدنيا تمامًا حولي...

وفي اللحظـــة التاليـــة، أنـــا لا أزال واقفـــة في مكـــاني، لكنهـــا الظهيرة،هـــل ...هل نجحت بالعودة ؟؟!!

أتلفت لأنظر حولي، ياللهول، لقد تأخرت، لقد عدت متأخرةً...

"يوسف" بدأ عبور الطريق فعلًا...!!

***

التاســـعة صـــباحًا، الاثنـــين، الســـادس مـــن أغســـطس مـــن عـــام ٢٠٢٠ هـــذا مـــا أشـــارت إليـــه الســـاعة المعلقـــة في بهـــو الاســـتقبال بالمشـــفى، لقـــد عـــدت.. عـــدت في صـــباح اليـــوم التـــالي لليـــوم الـــذي قفـــزت فيـــه للـــماضي... لقد نجحت!!! لقد فعلتها حقًا!!

ترى.. هل سأراه الآن ؟

-"صباح الخير"أدي"... كيف حالك اليوم؟".

(أدي؟؟منذ متى يناديني"ألفين" بهذا الاسم ؟؟!!).

-"على خير ما يرام "ألفين".. كيف حالك أنت وحال "ماري"؟"

- "بخـــير ...نســيت أن أخـــبرك.. لقـــد اعُتمِـــدت شـــيكات المرتبـــات... تستطيعين الذهاب لقبضها الآن".

-"هـــذا رائـــع ...أشـــكرك عـــلى المعلومـــة.... بالمناســـبة.. كيـــف حال"جو"الآن؟"

-"هههههـــه..... أنـــا مـــن يفـــترض بـــه ســـؤالك عـــن "جـــو" ... أنـــت مـــن يبيت معه..لا أنا "أدي" ... ألقِ عليه التحية بالنيابة عني"

(أبيـــت معـــه!! مـــا الـــذي تغـــير بالضـــبط خـــلال الأربـــع ســـنوات الماضـــية ؟؟!).

-"هههههـــه..... لم أتنـــاول قهـــوتي بعـــد... لســـت بكامـــل تركيـــزي.. كنـــت أقصد سؤالك عن ابنك"

-"نقـــص الكـــافيين.. أدرك مـــا تعانينـــه ..."دانييـــل" بخـــير.. لقـــد بـــدأ يتحسن.. أشكرك على سؤالك"

- "لا شكر على واجب ... حسنًا أراك لاحقًا "ألفين" ".

يبدو أنني سآخذ بعض الوقت لأدرك ما أحدثته بتغيير الماضي...

كنـــت مـــترددة في العـــودة لمنـــزل "يوســـف"... ربمـــا أنـــا لا أعـــيش هنـــاك الآن.. لكـــن.. لســـت أدري أيـــن أصـــبحت أقـــيم ...هـــذا عيـــب تغيـــير الأحـــداث في مـــاضٍ بعيـــدٍ نســـبياً.. يصـــعب اســـتنتاج ومعرفـــة ماترتـــب عليها..

أولجـــت المفتـــاح في البـــاب، ومـــا إن دخلـــت حتـــى وجـــدت فتـــاة صـــغيرة - ربمـــا تخطـــت عامهـــا الأول ببضـــعة أشـــهر قليلـــة- تـــركض متجهـــة نحـــوي، تحتضن ساقيَ بيديها الصغيرتين بحب ... وتناديني"ماما"!!

حملتهـــا وسرت إلى الـــداخل محتضـــنة إياهـــا أتأملهـــا، ملامحهـــا إلى حـــد كبير تشبهني إلا أن عيناها وشعرها يشبهان...

-"حبيبتي لقد عدت مبكرًا اليوم ..."

"يوســـف" قـــد عـــاد! "يوســـف" عـــاد وينـــاديني حبيبتـــي!!... مـــن الواضـــح أنه قد فاتني الكثير!

- "مـــا الأمـــر؟ مـــا بـــكِ عزيـــزتي ؟ تبـــدين.. مذهولـــة..حائرة.. شيء مـــن ذاك القبيل"

كنـــت أحملـــق في الصـــورة المعلقـــة عـــلى الحـــائط خلفـــه، كانـــت صـــورة زفاف...!!

صورة زفافي أنا!

ويوسف!

-" "جو"... أنا.. لست أدري ما أقول"

اقـــترب منـــي وأخـــذ يتحســـس شـــعري ومـــن ثـــم طبـــع قبلـــة عـــلى جبينـــي، أجلسني على الأريكة وأخذ الطفلة مني ثم قال:

- "حســـنًا.. لقـــد فهمـــت.. لقـــد عـــدت لتـــوك مـــن قفـــزة زمنيـــة للماضي..صحيح؟"

قالهــا بكــل بســاطة وكأنــه أمــر اعتيــادي فأومــأت بــرأسي إيجابًــا وأنــا مبهوتة...!!

-"لكم من الوقت؟"

_"أربع سنوات ..."

ابتسم بحنان وقال :

-"أجــل ... أذكــر ذاك التــاريخ ... لفــترة طويلــة بعــدها ظننــت أننــي كنــت أهــذي ... في لحظــة كنــت أعــبر الطريــق ... وفي الأخــرى كنــت ملقــى عــلى جانــب الرصــيف ... لوهلــة رأيــت اثنتــان منــك ... واحــدة عــلى الرصــيف المقابــل... والأخــرى قادمــة مــن الاتجــاه المعــاكس تــركض نحوي...!!!

أوتعلمين؟ رأيتك تبتسمين لي وكأنك تنفست الصعداء...

لوحــت لي.. وفي اللحظــة التاليــة كنــت قــد تلاشــيتِ مــن المكــان ... وكأنــك تبخــرت حرفيًــا.. حاولــت بعــدها إقنــاع نفسيــ أننــي كنــت أهــذي ... ولفترة لم أخبرك بمارأيت، لكن"

-"لكن ماذا؟"

-" كانــت تــراودني رؤى - شــبيهة بمــا كنــت تحكينــه لي ســابقًا- عــن حيــاة موازيــة.. ســبق أن عشــت فيهــا.. لكنهــا لم تعــد موجــودة... فيهــا صدمتني سيارتان بشكل متتا لٍ.. وتظلم الدنيا بعدها تمامًا"

-"لقــــد فقــــدتك ذاك اليــــوم ... لم أســــتطع التعــــايش مــــع ذلــــك..، حتــــى البارحــــة صــــباحًا كنــــت غــــير موجــــود زرت قــــبرك البارحــــة وقطعــــت عــــلى نفسي عهدًا بأنني سأعيدك ".

اتسعت ابتسامته وقال:

-"وها أنا ذا ..."

ســـاد الصـــمت لوهلـــة أخـــذت أنقـــل بصـــري بـــين الصـــورة والطفلـــة التـــي أخذت تلعب أمامنا أرضًا..

ومن ثم سألته وأنا أشير إلى الصورة برأسي:

-"منذ متى؟"

-"عامان ونصف الآن ..."

ثم ألقى نظرة باسمة على الطفلة وقال :

-"ورزقنا فرح منذ عام ونصف.."

***

أصـــبحت لي حيـــاة كاملـــة في المســـتقبل -باعتبـــار الـــزمن الـــذي أتيـــت منـــه- زوج وابنـــة تتمنـــاهما أي فتـــاة في الـــدنيا، أشـــعر بالأمـــان هنـــا حيـــث لا محاكمة ساحرات، لا خطر يتهدد حياتي...

للمـــرة الأولى منـــذ بـــت أدرك مـــن أكـــون أشـــعر بـــأن لي قيمـــة مـــا، أننـــي محبوبة..

أشعر وكأنني نلت أخيراً المكانة التي أستحق..

لكــن الــدنيا تمنحــك الحيــاة في هيئــة رِزْمَــة منوعــة تكمــل بعضــها بعضًــا بنســب مختلفــة، فلــن تجــد شــيئًا أبــدًا تصــل نســبته لمئــة بالمئــة، وعليــك أن تــرضى بالنســب الممنوحــة لــك، فــإن حاولــت تغيــير إحــداها فــاعلم أن جميعها سيتغير، أو على الأقل بعضها بالتبعية..

لطالمــا أرّق منــامي مــا قرأنــاه في مــذكرات "تومــاس هدســون"، عــن كون"أديلينــا" - في زمنــه - اتهمــت بالســحر وأعــدمت حرقًــا نتيجــة اختفــاء"دورثي كاســت"، أي أننــي الســبب في إعــدامها، مــن المؤكــد أن اختفــائي-في شخصــية"دورثي"- نــاتج عــن أننــي لم أعــد لــنفس التــاريخ الذي رحلت فيه إلى الماضي!!

كثــيراً مــا فكــرت في أنــه يجــب عــليّ العــودة لأعيــد الأمــور لنصــابها مجددًا، أعيد كل شيء لما كان عليه!!

لكـــن...، هـــذا يعنـــي أن أتخـــلى عـــن حيـــاتي بأكملهـــا، عـــن ســـعادتي مع"يوسف" و"فرح".... هذا يفطر قلبي ....

وإذا مابقيــت، فسأضــع رأسي عــلى الوســادة كــل ليلــة عالمــة أننــي تسببت في حرق بريئة حتى الموت!!

فقط لأن قدرها جعلها أختًا غير شقيقة لي...

فقــط لأننــي فكــرت في مصــلحتي فقــط، وكيــف أحمــي نفسيــ ولم أضــع اعتبارًا لكيف سيؤثر ذلك على حياة البقية...

الحــيرة، صــارت عنوانًــا لحيــاتي، العبــث في خــط الــزمن لــه عواقــب!والآن صرت أشــك أن الــرضى عــن التغيــير المســتحدث ســيكون تامًــا، دومًــا

سـيكون هنــاك شـيئًا آخــر تــود تعديلــه، نســبة أخــرى ســتختل في نظــرك، ناهيــك عــن اخــتلاط الــذكريات في رأســك، تعــدد الخطــوط الزمنيــة التــي نشــأت كنتيجــة تغيــير حــدث مــا في المــاضي ســتربكك في كثــير مــن الأحيــان، حتــى أنــك ســتفقد القــدرة عــلى ربــط الأحــداث بعضــها بــبعض،

وإذا مــا كانــت حــدثت فعــلًا في الخــط الزمنــي الــذي تتواجــد فيــه الآن...!!

حاولت..حاولـــت كثـــيرا أن أتجاهـــل حقيقـــة أن مـــا حـــدث ل"دوروثي" هــو بســببي أنــا ولا أحــد ســواي، كنــت قــد بــدأت أحيــا الحلــم الــذي لطالمــا تمنيته.. زوج أحبه ويحبني.. ابنة هي اسم على مسمى"فرح"...

لم تعد حياتي مقتصرة على القصر وضفة القناة...

انـــدمجت تمامـــا في هـــذا العـــالم، في هـــذا الزمن،وكـــأنني ولـــدت فيـــه، لم أعد أشعر أني دخيلة بعد الآن..

هـــل أرغـــب حقـــا في العـــودة ؟! مـــا الـــذي أملكـــه في المـــاضي يســـتحثني لأعــود؟! لا شيء ســوى أمــي.. ولا أظــن أنهــا ســتكره ليّ الســعادة، لكــن ...تلـــك الكـــوابيس لا تفـــارقني،"دوروثي" تقـــاوم الغـــرق ومـــن بعـــدها تصرخ وهي تحترق حية...

عدة شهور مرت ، وفي كل ليلة استفيق مذعورة انتفض من البكاء...

كنـــت أظـــن أن انـــدماجي في الحيـــاة الجديـــدة سيشـــغلني عـــن الشـــعور بالـــذنب، كنـــت أحـــاول التظـــاهر أمـــام نفسيـــ أنـــه لم يكـــن بيـــدي حيلـــة، أنه إما حياتي أو حياتها وغريزة البقاء ستقدمني عليها في كل مرة...

لكــن انعكــاسي في المــرآة كــان يخــبرني أن هنــاك ســبيلا آخــر، أكــثر وعــورة ربما، لكنه سينقذ حياة كلتينا...

-" "جــو"... هنــاك أمــر مــا أرغــب في الحــديث عنــه معك...يشــغل بــالي منذ فترة الآن"

-"كلي آذان مصغية... أهو عن أحداث الأربع سنوات الماضية؟...

أم عن لماذا كنت متقبلًا للغاية فكرة أنك تسافرين في الزمن؟"

-"هذا وشيء آخر.."

-"هاتِ ما لديكِ "أدي" ..."

-"تــذكر مــا كُتــب في مــذكرات "تومــاس هدســون"؟... عــن محاكمــة "أديلينا" وإعدامها حرقًا بتهمة السحر؟"

-"أجل.. ماذا بشأنها؟"

-"لا أســتطيع إبعــاد هــاجس أنهــا أعــدمت بســببي.. لــو لم أقــم بالتبــديل منــذ البدايــة..أو لــو أننــي عــدت إلى حــاضري في نفــس وقــت اختفــائي.. لربما ظلت هي على قيد الحياة... أعني.. لم تعدم في الماضي.."

-"لــو أنــك مــا قمــت بالتبــديل وأخطــأت في الحضــور للمســتقبل... لمــا التقيتــك أو عرفتــك قــط.. لمــا أسرتنــي في شــباك حبــك... لمــا حظينــا ب"فــرح".. طفلــة تحمــل ملامــح كلينــا..تكفي ابتســامتها لتشــع البهجــة كأشعة الشمس حولها..."

قاطعته قائلةً:

-"أعلم هذا "يوسف" ... أعلم ... لكن.."

احتضن رأسي وربت عليّ بحنان وهو يقول :

-"لكن تشعرين بالذنب"

أبعدته عني برفق وقلت والدموع تحتبس بين أجفاني :

-"أجـــل ... لا أســـتطيع تحمـــل فكـــرة أن أحـــدهم قتـــل بســـببي ... أضـــف أنهـــا أختـــي.. حتـــى وإن لم تكـــن شـــقيقتي.. حتـــى وإن لم تعـــاملني يومًـــا من هذا المنطلق ..."

ساد الصمت لوهلة قبل أن يقول :

-"ما الذي تفكرين فيه؟"

-"لا بـــد لي أن أصـــلح مـــا أفســـدت .... عـــلى أن... أعـــود لأعيـــد التبـــديل مرة أخرى"

أطرق"يوسف" برأسه أرضا وغمغم قائلًا :

- "ألا يعنـــي ذلـــك أن.. كـــل مـــا مضىـــ ســـيُمحى؟... سيمسيـــ الأمـــر وكـــأنني لم أعرفك يومًا.. ستختفي"فرح" ... أنت ستختفين"

انفجـــرت الـــدموع مـــن عينـــاي ،وارتميـــت في أحضـــانه،كنت أحتمـــي بـــه، لكـــم أشـــعر بالضـــعف والعجـــز الآن، أمـــران أحلاهـــما مـــر ولا بـــد لي أن اختار...!!

- "منـــذ اســـتطعتِ إقنـــاعي بمـــن تكـــونين.. وأنـــا أحمـــل هـــم تلـــك اللحظـــة... تلـــك المـــذكرات ذكـــرت عودتـــك بعـــد اختفائـــك لفـــترة مـــن الـــزمن.. كنـــت أتمنى ... لست أدري..لكن يبدو الآن أن الاختيار قد حسم مسبقًا"

رفعت رأسي إليه بعينين دامعتين وبصوت مختنق قلت:

-"ســأعود إلى هنــا ... لابــد أن أفعــل.. لا أقــدر عــلى الحيــاة دونــك ... ســأعود لأســتعيدك واســتعيد "فــرح" ... أعــدك أن أبــذل قصــارى جهــدي ..."

اســتطاع يوســف رؤيــة الــتردد باديًــا في عينــيَ، كــان مــتفهمًا الأمــر، كــان يــدرك أن ذلــك لــيس هينًــا أبــدًا.. صــحيح أننــي لا أذكــر أحــداث الســنوات الأربــع الماضــية، حيــث أننــي لم أعشــها فعليًــا، إلا أننــي أدرك الصــورة العامــة، وعشــت فيهــا الشــهور الماضــية منــذ عــودتي الأخــيرة، أدرك جيــدًا حبنــا المتبــادل لبعضــنا الــبعض، أدرك وجــود مــلاك صــغير يجمعنــا، أدرك أن عــودتي تلــك المــرة - إن عــدت - تعنــي نســف كــل ذلــك، محــوه مــن الخــط الزمنــي الــذي سينشــأ نتيجــة التبــديل مــرة أخــرى، ســتُمحى ذاكرتــه عنــي ولــن يعــود هنــاك وجــود ل "فــرح"، لكننــي في الوقــت ذاتــه أيضًا لم أعد أحتمل شعور الذنب!!

لذا بعد صمت طال بيننا قال :

"لأننــي أذوب فيــكِ عشــقًا عــليّ أن أتخــلى عنــكِ، أســمح لــذاكرتي أن يــتم محوهــا ... عــليّ أن أدعمــك، تمامًــا كــما فعلــت منــذ أول يــوم التقيتــك فيــه، عــليّ أن أســمح لقلبــي أن يتمــزق في صــمت، سأســاعدك عــلى اتخــاذ قرار تم حسمه منذ ثلاثمائة عام وبقي فقط نقله لخانة التنفيذ..".

لقــد انتهــى الأمــر، قــرار مشــترك أخذتــه و"يوســف"، غــدًا ســأرحل، ســأعود لزمنــي، غــدًا ســيتلاشى كــل مــا أحببتــه يومًــا، ســأبيت الليلــة

محتضــــنة "يوســــف" و "فــــرح"، أستنشــــق رائحــــتهما، أحتضــــن ملامحهــــما بعينيَ ...

أن تعلــم أن ذلــك هــو الوداع..هــو الفــراق الأخــير، تحــاول أن تتــزود بمــا يكفــي مــن الأحبــة.. لكــن أتعلــم؟ لا شيء أبــدًا يكفــي، مهــما نلــت، ســتبقى راغبًــا في المزيــد، ألا لعنــة الله عــلى الفــراق، اشــتاقهما مــن قبــل أن أتركهما، فما يكون حالي بعد الآن، رحماك ربي بحالي ...

أشــعر بــألم يعتصرــ قلبــي كلــما فكــرت أني مفارقــة لهــما، أني مقدمــة عــلى محوهما من حياتي في خط الزمن ...

يا ويلي، لا ... لن أستطيع.. لن أستطيع ... لم لا أكون أنانية ؟

"دورثي" حظــت بفرصــتها في عــالم آخــر، زمــن آخــر مــوازٍ، هــي لم تهــتم لحالي، وإن رأتني أحرق حية أمامها لم يكن ليهتز لها طرف ...!!

لمَ أهــتم أنــا ...لمَ؟! ربمــا ... لأننــي أنــا السـبب؟ لــو لم أبــدل، أو لــو عــدت لحــاضري بــدلًا مــن المســتقبل لم تكــن هــي لتعــاني، لكــن لمَ كُتــب عــليّ أن أكــون أنــا دومًــا مــن تعــاني؟، لمَ عــليّ أن أكــون أنــا مــن تضــحي؟ مــن ترحــل ؟؟، لمَ عليّ أن أخسر من أحب...؟؟!

هذا ليس عدلًا...!!!

أنفجر بالبكاء الصامت حتى لا يشعرا بي..

أتــأملهما نــائمين بأحضــاني، ربــاه كــم أذوب فــيهما، كيــف لي أن أتخــلى عــنهما؟! ... لا أضــمن أني قــادرة عــلى العــودة، وإن عــدت، مــا أدراني إن

كنــــت قــــادرة عــــلى كســــب حــــب "يوســـف" مجــددًا ... كيـــف أضـــمن أني سأستعيد "فرح"؟!!

ســــأعود ...ســــأعود للحظـــة التبـــديل، أنتظـــر مغـــادرتي.. مغـــادرة نفسيــــ التــــي قامـــت بالتبـــديل الأول، وأعيـــد كـــل شيء كـــما كـــان، ســــأتحرك بســرعة، وأعــود للمســـتقبل.. أعــود لأســتعيد مــا أخــاطر بــه الآن،عــليّ أن أقـــاوم نفسيـــ، أن أجبرهـــا عـــلى العـــودة .... لا ســـبيل آخـــر، أردت أن يكــون آخــر مــا تقــع عليــه عينــيّ هو"يوســف" و"فــرح"...أردت أن أبقـــي حافز العودة أمام عينيّ، لن أستغرق الكثير، سأستعيدهما ...

بــدأت عمليـــة تجميـــد الوقـــت، كنـــت أرتجـــف، أنـــتفض فعليًـــا مـــن الـــذعر، التردد يتملكني...

تلك النظرة في عيني "فرح" ... تلك البراءة...

ذلك الحب ...!!

أنا أخاطر بفقدان هذا للأبد...

لا لن أستطيع، لن أستطيع ... لن أعود ... سأوقف الأمر برمته ... لا لن أعود ...

لا.. لا.. لا.. لقد بدأ الانتقال فعليًا...

لا.. لا أرغب في فقدانهما ... لاااااا ...

أظلمت الدنيا ومادت الأرض تحت قدميّ لقد فقدت تركيزي تمامًا ... لن أعلم الآن أي زمن سأكون فيه ... لن أعلم إن كنت سأعود يومًا ... أو إن كنت سأحظى بحبهما مجددًا ...

٧ - دورثي كاست تعود

لا أذكر كم مرّ عليّ من وقت وأنا ممددة ها هنا، كل ما أذكره هو أنني قد فقدت تركيزي كليةً بينما بدأت جزيئات جسدي في الانتقال عبر الزمن، ترددت.. أردت أن أتوقف أن أمنح نفسي مزيدا من الوقت للتفكير وإعمال العقل ...

لم أرد ترك يوسف وفرح ...تمنيت لو أن هناك وسيلة ما، مهرب من الفراق وفي الوقت ذاته يضمن لدوروثي النجاة..

لكنه وفيما يبدو قد قُضي الأمر... لست أدرك أين أكون، أو إلى أي عام وصلت ... الشيء الوحيد الذي أنا موقنة منه هو أنني قد عدت في الزمن، الموجودات حولي تشي بذلك ...

حاولت النهوض إلا أن دوارًا عنيفًا كان يكتنف رأسي فعدت للجلوس مستندة بكفي على الأرض العشبية الندية...

"آنسة " كاست"؟! عجبًا خلتك .... حسنا لا يهم، أين كنتِ طوال تلك السنوات؟"

كان ذلك "توماس هدسون"، لم أدرِ متى أو من أين أتى!! وكأنه ظهر من العدم، أو ربما أنا هي من لم تستجمع شتات فكرها بعد...

"في أي عام نحن ؟!"

حدق توماس فيّ بدهشة لوهلة قبل أن يقول مغمغمًا:

" ١٧٣٢، لقد مضت ثمان أعوام مذ رأيتك آخر مرة"

"ثمان أعوام ؟!!، ماذا عن دو.. أقصد ماذا عن أديلينا؟ أتستطيع أن تأخذني إليها؟"

"أديلينا ؟!! تلك التي أُتهمت بالسحر وحُرِقت حية بسبب اختفائك؟ بالطبع أستطيع اصطحابك إلى حيث نُثِرت رفاتها، عند القناة حيث اعتادت الجلوس في وقت فراغها"

كانت نبرته منفعلةً حادةً حتى وإن حاول كتم ما يعتمل بنفسه، بدا لي أنه كان مقربًا منها، كما كان مقربًا مني في الخط الزمني الأول الذي كنت فيه أنا أديلينا، ربما بعض الأشياء لا تتغير...

"أنا.. لست أدرِ ما أقول..أنا آسفة حقًا، لكن.. أعدك سأصلح ما أفسدته".

كانت نظراته إليّ أشبه بسهام نارية تخترقني وهو يقول بنبرة حاول إخفاء الاستهزاء منها:

"وهل يعود الأموات؟ تلك هي السبيل الوحيدة لإصلاح ما أفسدتِ"

"بل هناك سبيل آخر.. فقط أريد منك أن تثق بي مجددًا، ثق بي كما وثقت أنا بك فيما مضى".

"عـمَ تتحدثين؟! لم يربطني وإياكِ سوى تلك اللوحة التي رسمتها لك، هل هذا هو مفهومك عن الثقة؟!"

"لم أعنِ هذا الزمن، في زمن آخر لم يعد موجودًا كنتُ أنا فيه أخرى، وثقت بك، كنت صديقي، الوحيد الذي تفهمني، الوحيد الذي استأمنته على سري"

بتوجس قال :

"عن أي سر تتحدثين؟! لم يجمعني وإياكِ أسرار قط"

تحاملت على نفسي لأنهض عن الأرض، ومن ثم اقتربت منه مُشيرة إلى رأسه قائلةً :

"في مكان ما ها هنا أنت تعلم ما أتحدث عنه، ألم تراودك أحلامًا أو رؤى لمشاهد عابرة استشعرت أنك قد عِشتها مسبقًا في حياة أخرى غير تلك التي تحياها الآن؟!

ألا تذكر رؤيتي بمثل تلك الهيئة وقت أن كنت تبلغ الخامسة من عمرك؟! ..."

قاطعني قائلًا بريبة وهو يتراجع بضع خطوات للخلف :

"ذاك كان حلمًا، مجرد حل..."

قاطعته بدوري قائلةً :

"لم يكن حلمًا ...، في مكان ما داخلك أنت موقن أنه لم يكن حلمًا، ألم تتساءل كيف علمت بهذا الأمر؟ لا يبدو ليّ أننا كنا مقربين للدرجة التي تجعلك تقص عليّ أحد أضغاث أحلام طفولتك ...

لقد كنتُ هناك فعلا.."

ظلّ محدقًا بي لفترة لا بأس بها من الزمن قبل أن يقول بصوت منخفض:

"ألا يعني هذا أنكِ ...؟!"

"بــلى.. أنــا تمامًــا كــما خطــر بــذهنك فهــل ستســاعدني لأعيــد الأمــور لنصابها؟!"

بدا التردد والتوجس على محياه واضحًا بينما قال :

"أيوجد أمامي خيار حقًا؟ أعني ...ألن تلحقي بيّ الأذى في حالة رفضت مساعدتك؟"

"لم أستعمل هبتي يومًا لأذية أحدهم، ولن أفعلها قطعًا مع شخص كان بمثابة الأخ الأكبر في خط زمني سابق"

تنهد بعمق وصمت لوهلة قبل أن يجذبني من يدي قائلًا:

"هيا الآن، لا ينبغي أن يراك أحدهم، يجب أن تتواري عن الأنظار، أعرف مكانا تستطيعين البقاء فيه"

كانت تلك مجازفة، لست أدري حقًا ما الذي جعلني أقدم عليها، ربما تعاملت معه وكأنني لازلت في الخط الزمني الأول، حين كان يعرفني كأديلينا، عقلي يرفض كوني دورثي كاست حيث أنه لم يعاصر ما يفترض به أن يكون ذكرياتها الآن ...

أدرك أنه لازال مترددًا بشأن مساعدتي، كونه يساعدني على الاختباء الآن لا يعني الموافقة الضمنية كما قد يوحي به الوضع، إنما هو يمنح نفسه فرصة ليقيم الأمر، أدرك هذا لأنني أعرفه جيدًا، هو يحاول مدارة انفعالاته وما يدور بخلده، إلا أنه لم يكن بارعًا بذلك يومًا ...

"ها قد وصلنا.."

قالها توماس وهو يشير إلى منزل صغير على أطراف ضيعة السيد كاست، كان هذا منزلي فيما مضى...

ترى هل أمي لاتزال هنا ؟!

"أليس هذا منزل أديلينا ؟! "

أومأ برأسه إيجابًا ومن ثم قال :

"هيا، لحسن الحظ أن الشمس قد غربت منذ فترة، لن يميز أحدهم ملامحك إلا عن قرب"

سرت خلفه أحث الخطى نحو باب المنزل وأنا ألهث قائلةً:

"ألن تمانع أمها؟!"

التفت إليّ بينما يعالج قفل الباب قائلًا:

"المنزل صار مهجورًا منذ إعدام أديلينا، لا أحد يدري على وجه التحديد ما حلّ بأمها، البعض يقول إنها هربت خوفًا من إعدامها هي الأخرى -ففي نظرهم أن الابنة كما أمها- وآخرون يدّعون أنها قد ماتت بحسرتها على وحيدتها، لكنني أرجح هروبها فإن كانت قد ماتت فأين ذهب الجثمان؟!"

شعرت وكأن كلماته قبضة فولاذية تعتصر قلبي، كنت حمقاء متسرعة لا تكترث سوى لنفسها وحسب، لم أفكر في توابع فعلتي، لم يخطر ببالي قط أن أحدهم قد يتأذى بسببي، الأنفاس تؤلمني، والدموع تحتبس بين أجفاني، ليت شيئا لم يكن... لا تلك أمنية خرقاء أخرى.. فحينها لم أكن لأعرف يوسف، حتى وإن كنت أشعر بالألم الآن لفقدانه فقد حظيت بحبه لفترة لا بأس بها من الزمن...

لا بد وأن أعيد الأمور إلى نصابها ...

حينها ربما أمكنني العودة لكسبه في حياتي مجددا، ربما فرح أيضًا...

رأسي تكاد تنفجر...

"ألن تدخلي؟!"

قالها وهو يشير للباب المفتوح مُخرِجًا إياي من عاصفة الأفكار التي اجتاحتني، فأومأت برأسي إيجابا بينما أدلف داخلا ...

"إذن.. ما الذي كنتِ تعنينه بقولك إنك ستعيدين الأمور لنصابها؟!وما قصدك بخط زمني سابق؟!"

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أحاول استجماع الكلمات قبل أن أقول ناظرةً لعينيه مباشرة:

"لديّ القدرة على الانتقال في الزمن، وفي كل مرة أحدِثُ تغييراً في الماضي ينشأ خط زمني جديد يمحو بضع أحداث ويضيف أخرى، في المرات القليلة الأولى كنت أغير أفعالًا بسيطة ذات تأثير ثانوي محدود...

أما التغيير الأخير فقد نشأ عنه محو خط زمني بأكمله..

خط زمني كنت فيه أنا أديلينا –الابنة غير الشرعية للسيد كاست-، فيه أنت كنت بمثابة أخي الأكبر،وأنت من حذرني بشأن افتضاح أمري كوني ساحرة، كانت الأقاويل والشائعات تتناثر بين النسوة في السوق، كما أنك أنت من كان صاحب فكرة عودتي في الزمن ..."

قاطعني ملوحًا بيده في الهواء قائلًا بشك :

"انتظري لحظة فحسب.. كيف تكونين أديلينا ؟! هذا لا يعقل.. أنتِ "دورثي كاست"، ألا تعتقدين أنني أستطيع التمييز بينك وبينها ؟!"

"أخبرتك أن ذاك الخط الزمني قد تم محوه تماما، وبالتالي فإن ذاكرتك عنه قد مُحيت هي الأخرى،ومع هذا فإن عقلك الباطن لازال يحتفظ ببضع لمحات من تلك الحياة السابقة، التي لم تعشها في الخط الزمني الحالي..

في أحلامك أنت لا زلت ترى لمحات من تلك الحياة..حياة كنت تعرفني فيها كأديلينا؛ أليس كذلك ؟!"

حدق في بدهشة لوهلة قبل أن يقول :

"كيف علمتِ بشأن تلك الأحلام؟!"

"أنت كتبت ذلك في مذكراتك"

"لم أطلعكِ يوما على مذكراتي"

"قرأتها في المستقبل من حيث عدت اليوم كانت معروضة في متحف، أعلم أنك تحملها معك دومًا؛ لذا هلا كتبت فيها الآن عن عودة"دورثي كاست"؟ "

بدا متشككًا بينما يخرج دفتر مذكراته من جيبه،ويخط فيه بعض كلمات وهو يقول :

"لست أفهم، حقًا أنا عاجز عن فهم ما تتفوهين به!!والغريب أنني أجد في نفسي ميلًا لتصديقك، ميلًا لا أجد له أي تفسير منطقي"

"لا تكتب تفاصيل عما أخبرتك به، فقط اذكر العودة لا شيء سواها"

رفع رأسه إليّ متسائلًا فأكملت قائلةً :

"ذاك لغرض ما في نفسي، سأشرح كل شيء لاحقًا"

هزّ رأسه بعدم اقتناع لكنه لم ينبس ببنت شفة، لحظات وانتهى من الكتابة،ومن ثم رفع أوراق مذكراته في مواجهتي لأقرأ ما خطه فيها قائلًا :

" أهذا جيد كفاية؟!"

اومأت برأسي إيجابا قائلةً:

"تماما كما رأيتها في المستقبل"

"تدركين أنني لا أستوعب حرفًا من حديثك.. أليس كذلك ؟"

ابتسمت قائلةً :

"بلى، لكنك ستفهمه كما فعلت سابقًا"

"ربما.. تبدين واثقةً...حسنًا عليّ الرحيل الآن، سأعود لاحقا ببعض الطعام والملابس"

ثم أشار لملابسي قائلًا:

"فملابسك تلك عجيبة حقا! وستلفت الانتباه لو أن أحدا رآكِ"

" هل ستثق بي وتساعدني توماس؟!"

صمت لوهلة مطرقًا برأسه أرضًا قبل أن يقول :

"ستحتاجين لتنظيف المنزل فهو مهجو.."

قاطعته قائلةً:

" أجب السؤال من فضلك توماس"

فنظر إلى عيني مباشرة وقال :

"لست أعلم ما إذا كنت أستطيع الوثوق بكِ بعد، لكنني أميز الصدق من الكذب حين أسمعه ...

وأنتِ تبدين مقتنعة تمامًا بما تقولين وتصدقينه بكل جوارحك؛ لذا...فسأساعدك حتى أتبين حقيقة الأمر"

أومأت برأسي قائلةً :

"هذا يكفيني للآن"

لم أرغب في إضاعة المزيد من الوقت، على الرغم من شعوري بالإنهاك وعدم الاتزان؛ نتيجة فقدان التركيز أثناء انتقالي في الزمن إلا أنني أردت الإسراع في العودة للحظة التبديل الأولى،على تصحيح الوضع ومن ثم أفِ بوعدي ليوسف...

حاولت الاسترخاء الليلة لأكون في كامل تركيزي عند بزوغ الفجر، سأعود لأتأكد من عودة الأمور لنصابها، ومن ثم أشق طريقي للعام ٢٠١٦ .. للحظة التي يُفترض بيّ مقابلة يوسف فيها...

كنت أحاول نيل قسط من النوم حين تناهى لمسامعي طرقات خفيفة، شعرت بالقلق، خفت أن يكون أحدهم قد انتبه لوجودي هنا، فنهضت على أطراف أصابعي متسللة للنافذة المجاورة للباب، ومن خلف الستائر المهترئة اختلست النظر، وعلى ضوء القمر البدر رأيت توماس هناك واقفًا يحمل سلة صغيرة يتلفت حوله في قلق وهو يواصل الطرق بتوتر...

ما إن فتحت الباب حتى دلف بسرعة للداخل مغلقًا إياه خلفه قائلًا بهمس منفعل:

" لمَ أخذتِ كل ذلك الوقت؟!ماذا لو رآني أحدهم واقفًا بمنتصف الليل أمام بيت ساحرة مهجور، أتدركين تبعات ذلك عليّ ؟!"

غمغمت قائلةً:

" أعتذر، كنت على وشك النوم، أضف إلى ذلك أنني لم أكن أعلم أنه أنت"

زفر بشدة محاولًا تخفيف توتره، ثم قال متلفتًا حوله واضعًا السلة على أقرب منضدة:

"لا يبدو ليّ أنك قد أزلت ذرة غبار واحدة، كيف ستجلسين في المكان هكذا ؟!"

"لن أطيل البقاء، سأغادر فجرًا، لم يكن يُفترض بيّ العودة إلى ١٧٣٢، وجهتي كانت ١٧٠٦ "

مطّ شفتيه بعدم اقتناع قائلًا :

"هل يعني ذلك أنك ستسافرين في الزمن ؟!"

"نعم!كما أخبرتك سابقا..سأعيد الأمور لنصابها، سأعود كما كنت..أديلينا"

حاول أن يقول شيئًا لكن بدا أنه لا يجد كلمات مناسبة تعبر عما يدور بخلده؛ فآثر الصمت وأخذ يُخرِج من السلة بعض الأقمشة البيضاء الملفوفة حول بعضها البعض وفطيرة ...

"رائحتها شهية.. تشبه كثيراً تلك التي كانت تعدها لي أمي في صغري"

التفت إليّ قائلًا:

"لكن.. اعذريني.. أمك قد توفيت أثناء ولادتك"

"تلك دوروثي، توماس صدقني أنا هي أديلينا"

"أو تعلمين ... رغم غرابة الأمر وعدم منطقيته إلا أنني أصدقك"

لم يكن من عادة توماس أن تتحول قناعاته بهذه السرعة، بدا ليّ الأمر غريبًا للغاية، فتساءلت قائلةً :

"ما الذي بدل رأيك ؟ لم آتيك ببرهان على صدق كلامي فما الذي جدّ بالأمر؟!"

ابتسم وهو يمد يده لي بقطعة من الفطيرة قائلًا :

"بل فعلتِ ...

أمك بخير وآمنة ... هي من أعدت تلك الفطيرة خصيصا لكِ احتفاء بعودتك، كانت تعلم منذ لحظة التبديل الأولى أ نكِ أنتِ ابنتها، ما من أم ستعجزعن معرفة من نما في أحشائها، علمت أن السحر قد تدخل وآثرت تركك تحظين بالفرصة لرؤية النتائج بنفسك ...فمن يخوض التجربة ليس كمن يسمع عنها...

علمت أنك ستعودين في وقت ما، كانت تنتظرك وأخبرتني منذ اختفائك كدوروثي، كانت تثق بي كما تفعلين"

قاطعته قائلةً وأنا أشعر بدهشة حقيقية:

"مهلا.. مهلا قليلًا.. لست أفهم، أيعني هذا أنك لحظة رأيتني ..."

قاطعني بدوره قائلًا:

"كنت قادمًا من أجلك، ألم تستغربي وجودي في هذا المكان الخال في مثل ذاك الوقت؟!"

"وكيف علمت ...؟!"

لم أجد كلمات مناسبة أصيغ بها كل تلك التساؤلات التي دارت برأسي؛ فآثرت الصمت، لكن بدا أنه أدرك ما أصبو إليه فقال وهو يشير بعينيه ليده التي مازالت ممدودة بالفطيرة وهو يقول:

"أمك أخبرتني، يبدو أن رابط الدم يجعلها تشعر بأثر سحرك في الأجواء"

تناولت منه الفطيرة وبدأت التهمها في نهم قائلةً ما بين القضمات:

"لمَ لمْ تخبرني سابقا؟ أنك تعلم؟ كيف علمت هي بالأساس بأمر التبديل؟! يُفترض بالجميع أن تُمحى ذاكرتهم وتتبدل لتوائم مع التغير المستجد!"

"الجميع عدا من يملكون هبة سحر حقيقية، فما بالك بمن أورثتك تلك الهبة عبر صلة الدم التي تربطكما، هي احتفظت بكلتا الذاكرتين، وانتظرت الوقت المناسب لتخبرني"

غمغمت قائلةً:

"هذا يفسر الأمر قليلا، لكنك لم تجب سؤالي.. لمَ لمْ تخبرني؟ لمَ تظاهرت بالشك؟"

"لم أكن متظاهراً، بضع تساؤلات كانت تدور بخاطري، ماذا لو أن أمك كانت مخطئةً؟ ماذا لو أنها ادعت أن دوروثي هي أديلينا لتعوض شعورها بالفقد؟ لا تنسي

أنها لم تخبرني إلا بعد اختفائك، وبعد إتمام عملية الإعدام؛ فكان يجب أن أتأكد بما لا يدع مجالًا للشك، لا تكفي بعض ومضات حياة سابقة في الحلم للتيقن"

هززت رأسي متفهمةً ومن ثم سألته بينما ازدردت اللقمة الأخيرة :

"لمَ لمْ تأتِ معك؟ وددت لو أراها"

"هذا خطر في الوقت الراهن، تعلمين لو أن أحدًا رآها، أو مجرد علم بوجودها ها هنا فسيتم إعدامها على الفور"

طأطأت رأسي أرضًا لوهلة ومن ثم سألته بخفوت قائلةً:

"هل كنت مقربا منها؟!"

"مِن مَن؟!"

"أختي ..."

"أجل.. كنا صديقين"

حاولت الابتسام وأنا أقول:

"لذا كنت محتدًا عليّ، لأنني السبب.."

قاطعني قائلًا بينما أخرج ثوبًا من السلة ناولني إياه :

"ستعيدين الأمور لنصابها، لن يتأذى أيا كان، أعلم هذا يقينا في مكان ما داخلي... ارتدِ هذا حتى إذا رآكِ أحدهم لم يستغرب هيئتك.. هو ثوب أمكِ بالمناسبة، كانت تحتفظ به من أجلك"

ثم صمت لوهلة قبل أن يقول:

"سأغادر الآن حتى لا تلحظ زوجتي غيابي، وأتمنى حين يأتي الغد أن أكون في خط زمني جديد يكون فيه الجميع بأمان"

إنه الفجر، السماء ملونة ببضع درجات من الأحمر والبرتقالي تندمج مع اللون السماوي؛ لتشكل لوحة بديعة من صنع الخالق، الشمس وقت الشروق لطالما سهرت فقط لأتأملها، أعشق الشروق وكأنه سيحمل لي بداية جديدة مغايرة لوتيرة الحياة، لا شيء سوى النسمات الباردة وزقزقة العصافير، شعورعارم بالاسترخاء غمرني، ذلك هو الوقت المناسب، كنت قد ارتديت ثوب أمي فوق ما كنت أرتديه من ملابس القرن الواحد والعشرين، ومن ثم خرجت لأقف أسفل الشجرة الواقفة خلف المنزل، بعد أن تأكدت من أنه لا أحدًا موجود...

جمدت الوقت- أصبح ذلك الآن أمرا معتادًا وسهلا للغاية- الصمت المفاجئ من حولي أكد أن ذلك قد تم بنجاح، أغمضت عيني مجددًا وأخذت أردد داخل عقلي بتركيز شديد:

"العام ١٧٠٦، مباشرة بعد إتمام التبديل، عند غرفتي"

تيارات متبادلة من السخونة والبرودة تعتريني، أستطيع الشعور بجزيئات جسدي تنتقل، سكون تام ومن ثم ما يبدو كسقوط مفاجئ سريع، وكأن إعصارًا قد سحبني لمركزه ولفظني خارجه بغتة في آن؛ ليعود بعدها السكون مجددًا...

أشعر وكأنني أقف على الماء فاقدة للاتزان...

فتحت عيني لأجدني في الممر أقف أمام باب غرفتي،الذي فُتِح ليخرج منه توماس- طفلًا- والذي ما إن انتبه لوجودي حتى حملق في بدهشة لوهلة، وكان على وشك أن يتفوه بأمر ما، مُشيراً بيده نحو الغرفة خلفه، لولا أن أسرعت نحوه واضعةً إصبعي على فمه هامسةً :

"إن غادرت الآن دون أن تأتي على ذكري لأي من كان؛ فستجد هدية لك في مهد أديلينا الصغيرة غدا..حسنا ؟"

أومأ برأسه إيجابا ولوح لي مودعًا ومضى متجهًا نحو باب المنزل، فسرت خلفه، وما إن اطمأننت وتأكدت أنه رحل؛ حتى تسللت عبر الممر عائدةً نحو الغرفة...

استرقت النظر عبر فرجة الباب؛ لأجد نسختي التي تصغرني بأربع أعوام واقفة جوار المهد، وعلى وجهها أسمى آيات التوتر، التفتت نحو الباب وكادت أن تراني لولا أن سحبت رأسي خارجةً بسرعة لالتصق بالجدار المجاور، أعلم الآن أنني كنت سبب خطأ القفزة الأولى!

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أطل برأسي مجددًا، وكانت هي قد اختفت تمامًا، ربما قد وصلت العام ٢٠١٦، ربما هي مع يوسف الآن!

دلفت للداخل في سرعة مغلقة الباب خلفي، ومن ثم حملت دوروثي من المهد، ورفعتها ليصبح وجهانا متقابلان...

أخذت أتأملها ومن ثم غمغمت لها قائلةً :

"ربما لن تعلمي ولن تدركي أبدا ما حدث، سأظل بالنسبة إليكِ واحدة من الخدم، ولا تعترفين بصلة الدم التي تربطنا، لكنك ستظلين دومًا سبب الكثير من التحولات في حياتي، لم أكن لأمسي هنا لولاكِ، وهذا لو تعلمين لهو أمر جيد، لقد تغيرتُ دوروثي، تغيرتُ كثيراً.. لم أعد أفكر بنفسي فقط، تعلمت تقدير ما أملك، ما ملكت... ولأجل هذا أشكرك ..."

دثرتها جيدًا واحتويتها في حضني ومن ثم ذهبت أُتِم التبديل الأخير...

***

إنه العام ١٧٢٤ حيث اختفيت من الخط الزمني الثاني، ها أنا ذا أعود مجددًا إلى هنا... ترى هل التبديل الثاني أعاد الأمور كما كانت؟ هل هذا هو الخط الزمني الأول؟ أم أنه خط زمني جديد تماما؟!

توجهت إلى حيث اعتدت الجلوس على ضفة القناة، وحيث اعتدت لقاء توماس، الذي كان واقفًا هناك بالفعل، وما إن رآني قادمةً نحوه حتى علت الدهشة قسمات وجهه، ولم ينبس ببنت شفة، حتى صرت واقفةً أمامه مباشرةً فقال بصوت منخفض:

"ما الذي حدث؟! لمَ لمْ تنفذي ما قلتهِ عن أنك ستصبحين الابنة الشرعية؟ ألم يفلح الأمر؟"

"أهذا يعني أنك تعرفني كأديلينا؟!"

"ما الذي أصابك يا فتاة؟! هل أصابكِ الخوف من افتضاح أمرك بلوثة جنون؟!"

"سأعتبر هذا إيجابا إذن ..."

"أدي.. ما الذي أصابك؟!"

"الكثير توم ... الكثير ولن يمكنني أن أقصه عليك كله"

"أستدعين الحيرة تتآكلني؟ حقا ؟!"

"فلنختصر الأمر في أن التبديل قد نجح وفشل في آن، مهما غيرت في الأحداث فلن أكون راضية"

كان على وشك التفوه بشيء ما حين قاطعه صوت أمي قادمًا من بعيد تقول هاتفةً :

"ها هي هناك يا سيدي، ها هي الابنة التي جلبت عليّ العار!"

تلونّ وجه توماس وهو ينقل بصره ما بيني وبين أمي، التي كانت مقبلة نحونا وبصحبتها عدد من رجال الإكليروس وخلفهم عدد لا بأس به من الناس! ومن ثم تمتم قائلًا :

"ما.. ما الذي تفعله أمك؟! ماذا أخبرتهم ؟!"

لم أدرِ كيف أجيب تساؤلاته لكنني قلت :

" أتذكر هدية تُرَكت لك في مهدي صباح اليوم التالي لمولدي؟ هل حصلت عليها ؟ ألاتزال بحوزتك؟"

بدهشة منفعلة هتف هامسًا قائلًا :

"ما علاقة هذا بأي شيء؟! أتدركين الموقف العصيب الذي أنتِ فيه؟"

نظرت في اتجاه أمي والقوم بصحبتها، كانوا يقتربون بسرعة مجدين الخطى نحونا، فالتفت نحوه مجددًا قائلةً:

"أرجوك أجبني توماس"

بحنق قال :

"أجل لا زلت أحتفظ بها"

"هلا رسمتها من أجلي؟ ثم ذيل اللوحة بإمضائك..أرجوك توماس من أجلي... وأمر آخر.. لا تدافع عني، لا تُظهِر حتى أنك كنت تعلم بشأني.. تظاهر بالدهشة.. بالغضب، لا أرغب أن تلقى حتفك بسببي، أيا كان مصيري فأنا قد تقبلته، صرت أوقن أن هناك منحة في قلب أي محنة"

التمعت الدموع في عيناه بينما قال:

"أيتها الحمقاء الغبية كان يمكن أن تنقذي نفسك"

"سبق وفعلت يا صديقي ... سبق وفعلت"

مع آخر حروف جملتي كان رجال الإكليروس يحاوطوننا ويقبضون على ذراعيَ كلتيهما بقسوة بينما أحدهم يقول:

"أديلينا ابنة جوان ...أنتِ مُدانة بممارسة السحر بناءً على شهادة من أمك،وعليه فقد صدر الحكم بإعدامك حرقًا!"

***

فيما يتعلق بتهمة السحر فالحكم يُصدر بمجرد الاتهام، المحاكمة هي أمر شكلي فقط لإظهار أن هناك عدل بحق المتهم، والعدالة ما هي إلا مظهر صوري ليتغنى المغيبون بأنه حتى تابعوا الشيطان -كما قيل لهم- يحظون بحقوق...

لذا ...ها أنا ذا.. في منتصف الساحة مقيدةً إلى عمود خشبي مرتفع، أسفله بعض من الحطب وأوراق وأغصان الأشجار الجافة، رائحة الكيروسين المنبعثة من أسفلي تزكم أنفي...

أمامي كان القس يمنح أمي بركاته يعدها بالخلاص وبجنة الرب؛ فقد دلتهم على شيطان ساحر، فهي في نظرهم لم تسمح بخداعها وقدمت الكنيسة على من كانت ابنتها قبل أن يستحوذها الشر، من ثم ربت على كتفها وأشار لها بالوقوف وسط الجماهير التي أتت تشهد الإعدام...

أخذت أتصفح الوجوه المتراصة أمامي، أنظر بأعينهم الممتلئة بالغل والشماتة، وكأنما بيني وبينهم ثأر دفين!

عينا أمي هي الوحيدة ربما من كانت تحمل نظرات القلق والحب، أجل الحب هذا لا يتعارض مع ما فعلته، ففي نظر الإكليروس الحرق سيطهر روح الساحرة ولا تعود

ملكًا للشيطان، وبعض العامة يظنون أن روح الساحرة قد ترتاح في مثواها الأخير، وحتى إنها قد تُقبل في الملكوت فقد تطهرت بالنيران...

بادلتها النظر ومن ثم أغمضت عيني لوهلة، رددت فيها بداخل عقلي رسالة وددت لو أنها تسمعها:

"أعتذر أمي عن كل ما سببته لكِ من متاعب، بقصد أو بدون، سأفتقدك كثيرا، سأفتقد حضنك، وفطيرتك التي لن أجد لها مثيلًا في أي زمن كان، كوني بخير لأجلك قبل أن يكون لأجلي، تستحقين منح نفسك الأولوية، فقد تحملت الكثير فيما مضى"

سمعتُ صوتها يتردد في داخل رأسي قائلةً:

"ستنالين خلاصك اليوم صغيرتي من حياة لطالما كرهتيها، لكنني أعلم أنكِ تعلمتِ مما رأيته فيها، أتمنى أن تكون حياتك القادمة أفضل حالًا من تلك، كوني فيها بخير لأجلي.. قبل أن يكون لأجلك"

فتحت عيني لأجدها تبتسم إليّ من بين دموع تساقطت رغمًا عنها على وجنتيها، وغير بعيد عنها وقف توماس متظاهرًا بالجلد، لكن وجهه المحتقن وأنفه المحمر كانا يفضحانه، حاولت طمأنته عبر نظراتي، لكن بدا أنه لا يراني عبر سحابة الدموع التي غشت عينيه...

صعد القس على منصة خشبية موضوعة إلى جواري، ثم وجه كلامه إليّ بصوت جهوري، بينما نظر إلى الجمع المتجمهر قائلًا:

"أديلينا ابنة جوان.. اطلبي السماح والمغفرة من الرب على خطاياكِ، تبرأي من الشيطان ..."

قاطعته بنبرة حازمة ووجه حرصتُ على خلوه من التعبيرات قائلةً:

"لم أتبع الشيطان لأتبرأ منه، أما عن الخطايا فهذا بيني وبين الخالق هو يعلم أنني استغفر عن كل ما ارتكبت عن عمد وبغير، فلتستغفروا أنتم عن أبرياء قتلتموهم بغير دليل"

انتفخت أوداجه واحمر وجهه غضباَ مع كل حرف أنطقه ليصيح في النهاية بغضب:

"صه أيتها الساحرة، ذاك اللعين يتحدث على لسانك، فلا تذكري الرب وتدنسي ذكره"

ثم هبط من على المنصة مشيراً للجلاد قائلًا:

"ارسلها للجحيم إلى حيث تنتمي!"

ظل وجهي خاليَا من التعبيرات في حين كنت أنتفض من الداخل ذعرًا، قلبي ينبض بقوة حتى أنني أكاد أشعر به يقفز خروجًا من بين ضلوعي!

ها هو رعبي الأكبر يتحقق حرفيًا! أنا مقيدة وعلى وشك إعدامي حرقًا بتهمة السحر... لكن الغريب في الأمر -الذي لم أتوقع قط حدوثه في مثل ذاك الوضع- أنه في مكان ما داخل قلبي كنت أشعر بالسعادة، لن يتأذى أحد بسببي الآن.. لا دوروثي ولا أمي، لقد حرصت على ذلك...

أستطيع الآن أن أشتم رائحة الدخان الذي بدأ يعمي بصري، ألقيت نظرة أخيرة على الجموع أمامي، التي تعالت صيحاتهم تهللًا، السيد كاست كان بينهم، رأيته يدس شيئًا ما في يد القس، الذي أعطى الأمر ببدء الإعدام، أمي تمسك بيد توماس ويدها الأخرى على فمها ودموعها تنهمر، أما توماس فقد بدا أن الصدمة عطلت حواسه؛ فوجهه كان جامدًا باستثناء الدموع التي انسابت ببطء على وجنتيه...أغمضت عيني بقوة، وحاولت كتم أنفاسي حتى لا أستنشق مزيدًا من الدخان... بغتة توقفت كل الأصوات من حولي، ساد الصمت تمامًا، وبدأت الأرض تميد من أسفل العمود المقيدة

به.. دوار عنيف يعصف برأسي، تيارات ساخنة وباردة تنتاب جسدي ... ومن ثم لا شيء..لا شيء على الإطلاق،وكأنني سقطت في الفراغ ... أهكذا يكون الموت؟!

***

٨- هل ...؟!

"وهذه أيتها السيدات والسادة القطعة الأخيرة لمزاد الليلة، لوحة تعود إلى ما يقرب من ثلاثمائة عام مضت؛ حسب تقدير خبرائنا..

اللوحة تمثل بورتريه لعائلة من ثلاث أفراد الأب والأم وطفلة، ربما أكملت عامها الأول بالكاد وغير معروف على وجه الدقة التاريخ الذي رسمت فيه، ولا الأسرة التي رُسمت لها اللوحة، الغريب أن طابع الملابس لا ينتمي مطلقا لتلك الحقبة الزمنية ويبدو أقرب لملابس عصرنا الحالي، رغم أن اللوحة تحمل توقيع"توماس هدسون".. أشهر رسامي البورتريه في "لندن" خاصة في الفترة من (١٧٥٥-١٧٤٥) للميلاد -وتم التأكد من صحة التوقيع، وانتمائه لهدسون عبر الاختبارات اللازمة لمثل تلك الحالات- هذه اللوحة عُثِر عليها في منطقة"باندل هيل".. ولا تنتمي لأي من مجموعاته، التي تم بيعها في ثلاثة مزادات منفصلة فيما مضى..، يبدو-وذلك حسب رأي خبرائنا أيضا- أنها لوحة من بدايات"هدسون"،وربما قبل أن يتتلمذ على يد"جوناثان ريتشاردسون"... لكن هذا لا يمنع أنها قطعة فنية أثرية قيمة.. لذا نفتتح المزايدة لراغبي اقتنائها ..."

مع آخر حروف جملة "أدريان جونز" المسئول عن قاعة مزادات العاصمة، كان يوسف يقف أمام اللوحة مذهولًا متسائلًا كيف يمكن للملامح أن تتطابق بهذا الشكل المذهل؟

فغمغم بينه وبين نفسه ساخرًا قائلًا:

"لم أكن أعلم أن لي أصولاً انجليزية، ربما أخذت هذه اللوحة، وطالبت بالجنسية معتبراً إياها إثباتا"

لم يغادر يوسف المزاد إلا واللوحة بحوزته، فقد أسرته من الوهلة الأولى، التي رأى فيها المنشور المجمع لمعروضات اليوم، ومنذ بدء المزايدات وهو ينتظر الإعلان عنها..كان سعيدًا بها كطفل تُرِك في متجر حلوى، وقيل له انتق ما شئت بدون حساب...حملها عائدًا لمنزله وعلقها في المدخل فوق(الكونسول) الرخامي ومن ثم جلس في مقابلها يتأملها مطولًا قبل أن تلفِتَ دقات الساعة انتباهه لوجوب المغادرة للحاق بموعد مناوبته المسائية...

"إذن أيها المبذر ... يبدو على وجهك السعادة، لابد وأنك اقتنيت شيئًا فنيًا آخر أليس كذلك؟".

ضحك يوسف في سعادة وهو يجيب قائلًا:

"بلى.. ولن تصدق، للوهلة الأولى تظن أنني المرسوم في تلك اللوحة"

رفع ألفين حاجبه ومن ثم قال ساخرًا:

"هل دفعت مالًا لأحدهم ليرسم وجهك القبيح هذا؟!"

"لا أيها السخيف، هي لوحة مرسومة منذ ثلاثمائة عام على الأقل، لأسرة من ثلاث أفراد -أبوين ورضيعة - الأب هو نسخة مني تماما!! ... وبالنسبة ل" قبيح" فليس صحيحًا إن الجميع يشبهونك يا صديقي"

بدهشة حقيقية قال ألفين:

"ثلاثمائة عام!!ونسخة منك أنت ؟!"

ثم اقترب من يوسف واضعًا يده على جبهته قائلًا:

"هل أنت مصاب بالحمى أو ما شابه؟!"

أزاح يوسف يده ضاحكًا ثم قال:

"تعال لمنزلي وسترى بنفسك أيها المتحاذق"

"سآتي وماري قطعًا لأثبت أن هوسك هذا قد أصابك بالجنون، أوتعتقد أني سأفوت على نفسي هذه الفرصة؟!، بعد غد الغداء سيكون عندك..اتفقنا؟"

"إن كنت أنا محقًا والشاب في الصورة يشبهني -وأنا أعلم أنني كذلك- فالغداء على حسابك"

"حسنا.. إلى بعد غد إذن"

عدة أسابيع مضت منذ اقتنى يوسف لوحته، تعلق بها كثيراَ حتى أنه خصص لها وقتًا يوميَا ليتأملها!

وتطور الأمر معه حتى أنه بات يحلم بتلك الفتاة في اللوحة...

"أراها كثيراَ ألفين،وكأنما كنت أعرفها في حياة سابقة"

"ألم أخبرك أن هوسك سيفضي بك للجنون!"

"أنا جاد ألفين!"

نظر ألفين إليه مستنكرًا ومن ثم قرر مجارته قائلًا:

"حسنا أخبرني عن أحلامك تلك!"

"تارة أراني معها في القطار متوجهين إلى ديفون،وتارة هي تعمل هنا معنا في المشفى، و ..."

"وماذا؟! أكمل ..."

"وتارة أنا متيقن أنها زوجتي وتلك الصغيرة في اللوحة ابنتنا"

لوح ألفين بيده في الهواء وهو يكاد يقع أرضًا من الضحك وهو يقول:

"حسنًا حسنًا ... لا أنكر أن ذاك المرسوم في اللوحة شديد الشبه بك، لكن ما تقوله قد فاق حدود الخيال يا صديقي، نحن لسنا في فيلم أو رواية خيالية ما، هذا العالم الحقيقي يا رجل وما تسرده غير منطقي على الإطلاق"

قطب يوسف حاجبيه عبوسًا وهو يقول متأففًا:

"أنا هو المخطئ لإخبارك بأي شيء كان.. لم أقل قط أن هذا واقع أيها الأحمق، لكن الأمر غريب حقًا!"

كاد ألفين أن يتفوه بأمر ما لولا أن قاطعته إحدى الممرضات قائلةً:

"دكتور"ويلياميز" يستدعونك بالاستقبال"

فأشار إليه ألفين قائلًا:

"سأذهب لكن سنكمل ترهاتنا تلك لاحقا"

على فراش الكشف خلف إحدى ستائر غرف الاستقبال كانت تجلس هي، مبعثرة الشعر، يحمل وجهها وذراعيها آثار سحجات وكدمات، نظراتها زائغة تائهة غير محددة الاتجاه، كانت تنتفض من الداخل للخارج، نبض قلبها أشبه بزلزال فاقت قدرة الأجهزة على قياسه...

دلف ألفين الغرفة وهو يسجل بعض الملاحظات في الأوراق بين يديه بينما قال دون أن يرفع عينيه:

"مرحبا سيدتي..سأكون طبيبك المعالج لهذه الليلة أنا دكتور"ألفين ويلياميز" هلا بدأنا باسمك، سنك، ومما تشتكين؟"

مع آخر حروف جملته كان قد رفع بصره إليها؛ ليشهق بدهشة ويتراجع خطوتين للخلف هامسًا لنفسه قائلًا:

"يا للسماء.. لقد أصبت بعدوى الجنون منك جو! فتاة لوحتك تجسدت أمامي!!"

تجاهلت هي ردة فعله وكأنما لم تلحظها على الاطلاق وقالت:

"كل ما أذكره أن اسمي هو أديلينا، كنت أسير عائدة لمنزلي حين هاجمني لصان، حاولت مقاومتهما بكل ما أوتيت من قوة، لكن ... حسنًا لست أذكر ما حلّ بي بعد ذلك، أفقت على هذا الفراش هنا، لا أحمل حقيبة أو أوراق ثبوتية أو أيّا ما يمكن أن أستدل به على نفسي، أنا حتى لا أذكر ما هي كنيتي!!...

أشعر بألم شديد في رأسي وفي سائر أنحاء جسدي،ولا أعلم كيف أوصلتني قدماي إلى هنا.."

حاول ألفين أن يخفي أثر دهشته ويمنح نبرة صوته الثبات وهو يقول:

"لا بأس سنكتشف الأمر سويًا.. لابد وأنك تعانين أثر ما بعد الصدمة، سنجري بعض الفحوص وسنقرر معا الخطوة التالية، لا داع للقلق"

ثم التفت للمرضة خلفه قائلًا:

"اخضعيها لتصوير مقطعي على الرأس،وفحوص معملية شاملة، وآتني بها فور ظهورها"

من ثم عاد موجهًا حديثه لأديلينا قائلًا:

"سأقوم بإدخالك القسم الداخلي حتى إتمام الفحوص،وسنعرضك على القسم النفسي"

فأومأت برأسها إيجابا دون أن تنبس ببنت شفة...

اقتربت الممرضة منه هامسة في أذنه قائلةً:

"دكتور ماذا عن التكاليف لا نعلم هل تأمينها الطبي يغطيها أم لا؟"

"ضعيها على حساب دكتور "آدم" لا أظنه سيمانع!"

ثم غمغم بينه وبين نفسه ساخرًا:

"فقد كانت زوجته في الحلم!"

***

" جو.. أترغب في متابعة حالة زوجتك بدلا مني؟! لقد أدخلتها القسم الداخلي، ووضعت كافة فحوصاتها على حسابك"

هبّ يوسف واقفًا من على مقعده غاضبًا في اتجاهه لمغادرة الغرفة وهو يقول:

"اخطأت حقًا حين بحت لك بما يجري معي، فكل ما تفعله هو المزاح والسخرية فقط"

اعترض ألفين طريقه مُوقِفًا إياه قائلًا بجدية:

"حسنًا أنا أعتذر جو، أعلم أنني في العادة أكون سخيفًا مستهزئًا، لكنك اعتدت هذا مني، لم أظن أنك ستأخذ الأمر على محمل الجد!، على كلٍ لم أكن أمازحك بشأن ما قلته منذ قليل، تلك الفتاة التي تحلم بها.. لقد كنت أعاينها للتو!"

نظر يوسف إليه باستنكار فأومأ برأسه إيجابًا وهو يرفع كتفيه ويخفضهما قائلًا:

"يبدو أننا نحيا في عالم هزلي مجنون يا صديقي، ما إن تظهر نتائج فحوصاتها سأطلعك عليها واصطحبك لرؤيتها؛ لتتأكد بنفسك أنني لا أخادعك"

***

ما إن باتت أديلينا وحيدة في الغرفة حتى تمددت على الفراش وعلى وجهها ابتسامة ارتياح واسعة، ردة فعل ألفين حين رآها أكدت لها أن خطتها تسير في الاتجاه المرغوب، وأن الصدفة لعبت دورها المطلوب في وصول اللوحة ليد يوسف!

أغمضت عينيها وأخذت تسترجع في عقلها الأحداث الأخيرة...

قبل أن تقفز عائدة للماضي في المرة السابقة كانت قد استعادت أحداث التبديل الأول في عقلها آلاف المرات، حفظت التفاصيل وترتيب وقوعها، لذا ضبطت توقيت رجوعها لتصادف توماس-الطفل- قبل عودته لمنزله، أخبرته أنها ستترك له هدية وقد فعلت..

في الخط الزمني الثاني حين عادت وأحضر لها الفطيرة كان يحمل -بِناءَ على طلب منها- بعضًا من الأقمشة التي يستخدمها للرسم عليها وعددًا من فُرش الرسم الجديدة ملفوفة داخلها، وكانت تلك هديتها له طفلًا فيما أصبح بداية الخط الزمني الثالث، بالإضافة لصورة كانت تحمل منها نسختين، واحدة تركتها له مع أدوات الرسم والأخرى احتفظت بها...

لشد ما كان مندهشًا حين رأى قطعة ورقية -غير أي ورق رآه في حياته- مصقولة عليها لوحة مصغرة لثلاثة أفراد رُسِمت بتقنية وألوان لم يرّ لها مثيلا قط، التفاصيل شديدة الوضوح فيما خصّ الملامح والملابس التي كانت غريبة تماما بالنسبة إليه، ولشغفه بالرسم منذ هذا العمر المبكر مثلت له تلك الصورة كنزاً، وربما كانت سعادته بها أكبر بكثير منها بأدوات الرسم ...

كان منبهراَ بها كثيراَ وحافظ عليها كحياته ولم يرها لمخلوق أبدًا، أو حتى يتحدث عنها عابراَ مع أي من كان، بينه وبين نفسه كان يسميها (هدية القادمة من الحلم)

وطوال سنـ ي عمره اللاحقة كان يسعى جاهدًا لاكتشاف تلك التقنية في الرسم،ويعمل على الوصول برسوماته لحد الكمال، مما هيئه لاحقًا ليصبح من أشهر رسامي عصره...

حتى أتى العام ١٧٢٤ -الخط الزمني الثالث- عادت أديلينا لهذا الزمن بعد أن تأكدت من إتمام التبديل الثاني بأمان، وتأكدت من حصول توماس على ما تركته له في مهدها، كان أول ما فعلته عودتها لمنزلها لتجد أمها في استقبالها قائلةً بنبرة قلقة وصوت منخفض:

"استعملتِ سحرك مجددا أليس كذلك؟ أحدثتِ أمرا عظيمًا صحيح؟ لقد شعرت بهذا فلا تنكري أدي"

"لن أنكر أمي ... لن أنكر"

"يا للهول.. ألديك أمنية موت يا فتاة؟ يا صغيرتي أنتِ كل ما أملك من حطام هذه الدنيا، ولا أقوى على خسارتك"

اقتربت منها أديلينا محتضنةً إياها ومن ثم ابتعدت قليلًا ليصبح وجهاهما متقابلين وقالت :

"أمي.. أعلم أنك لا تتمنين لي سوى السعادة، وتعلمين الآن الكلام المتناثر بشأني بين النسوة في السوق فيما تعلق بالسيد كاست وبالسحر، وكلاهما في النهاية حكم بالإعدام، هو لن يقبل بنسبي وأوضح هذا تمامًا، والسحر.. حسنًا.. أنتِ تدركين ما أعنيه"

بلهفة قالت :

"إذن فلنرحل عن هنا، نختبئ في أي مكان"

طأطأت أديلينا رأسها وقالت:

"ألسنة الناس سياط في كل بقاع الأرض، لن يرضى عنّا الجميع،وأينما حللنا ستثار الأقاويل"

بتوجس سألتها :

"ما الذي تعنينه؟ أدي ما الذي فعلته؟!"

أخذت تقص عليها ما مرّ بها الأعوام الأربع التي مضت من عمرها، وحتى عودتها ووقوفها أمامها في تلك اللحظة، وختمت كلامها قائلةً :

"لم أجد سوى حل وحيد يضمن سلامة الجميع"

غمغمت أمها قائلةً :

"وما هو ذاك؟"

"عليكِ أن تكوني من يبلغ الإكليروس عني ..."

قاطعتها بحدة قائلةً:

"هل جننتِ؟ أتريدين مني تسليمك بيدي لحتفك؟! مؤكد أن كثرة انتقالك في الزمن قد أثرت على عقلك!!"

"أرجوك انصتي إلي حتى النهاية، تلك الوسيلة الوحيدة لإبعاد الشبهات عنك، لن يمسسني سوء، سأنتقل في الزمن عائدةً للمستقبل، أريد منك أن تشرحي ماهية الصورة لتوماس، ذلك هو سبيلي لاستعادة قلب يوسف، لإقناعه أن بيننا رابطًا قويًا، اللوحة ستحمل ذاكرته الدفينة على أن تتذكر، أعلم أنه أمل ضعيف، لكنه طريقتي الوحيدة، فاللوحة التي كانت سببًا في تعارفنا الأول؛ أمست الآن تحمل ملامح دوروثي نتيجة التبديل الأخير، لو لم يرسم توماس اللوحة التي أطلبها لن يعود لدي ما يثبت له أننا كنا يومًا سويًا،أرجوك اخبري توماس بعد إلقاء القبض عليّ، بعد

اختفائي و ليس قبل ذلك، فلست أعرف ما تكون ردة فعله، أمي .. رجاءَ ساعديني على استعادة زوجي وابنتي في المستقبل"

ومن ثم أخرجت الصورة التي تحتفظ بها مُرية لها إياها، ساد الصمت لوهلة قبل أن تغمغم أمها قائلةً:

"لا سبيل لأثنيك عما برأسك صحيح؟"

هزت أديلينا رأسها نافية قائلةً:

"ربما قُدِر لي أن أحيا الحياة كما تمنيتها يومًا، ربما كل ما عليّ فعله هو السعي لنيلها وحسب"

صحيح أن الأمور سارت تمامًا كما خططت لها، لكن ذلك لم يمنع شعوراً بالقلق من أن يتملكها لاسيما حين كانت مقيدةً وعلى وشك تنفيذ حكم الإعدام بحقها، رهبة الموقف ذاته وخشيتها من ألا تتمكن من القفز في الزمن، من أن تفقد التركيز لأي سبب كان، كانت تنتفض من الداخل رغم أن ملامحها لم تشف أبدًا عما يعتمل بنفسها...

لكن ها هي ذي، في العام ٢٠١٦ -الخط الزمني الثالث-قلبها يرقص طربًا وخوفًا في آن، مجرد خاطر قربها من يوسف يمنحها إحساس الفراشات ذاك في معدتها، مزيج من مشاعر متضاربة، نعم هي على بعد بضع أمتار منه، لكن.. هل سيمكنها استعادة ما كان بينهما؟!

***

" جو..وصلت نتائج الفحوصات.. جميعها طبيعية، لا شيء سوى بضعة كدمات إثر مقاومتها اعتداء اللصين -حسبما قالت- وذاكرتها ممحوة لا شيء فيها سوى اسمها الأول ولمحات عن الحادث وفقط"

تناول يوسف الفحوص من يد ألفين مُلقيًا عليها نظرةً خاطفةً، ومن ثم قال:

"هذا غريب.. لا سبب منطقي يبرر فقدان الذاكرة الانتقائي ذاك! هل حددت لها موعدًا مع القسم النفسي؟ ربما هو أثر ما بعد الصدمة أو ما شابه، ماذا عن مقتنياتها؟ ألم يكن بها بطاقة هوية أو ما شابه؟!"

"نعم لديها موعد في العاشرة من صباح الغد، وفي الواقع لقد فات عليّ فحص مقتنياتها، سأفعل هذا على الفور"

لم يكذب ألفين خبراً وتوجه نحو قسم الأمانات بالمشفى؛ طالبًا الاطلاع على ما كان بحوزتها ساعة إدخالها، نظر الموظف بالسجلات أمامه ومن ثم قال:

"لم يكن بحوزتها سوى ساعة يد وصورة فوتوغرافية صغيرة"

"أرني إياهما.."

وما إن وقع بصره على الصورة حتى اتسعت عيناه دهشةً، وغمغم لنفسه بذهول قائلًا:

"هذا غير ممكن، غير منطقي على الإطلاق، تبًا لك جو لقد أُصِبت بلعنة لوحتك تلك، لقد فقدت عقلي حتمًا ولابد من أنني أعاني هلاوس بصرية من نوعًا ما!"

"عذرًا دكتور لم أسمع ما قلت.."

"سأحتفظ بهذه لوهلة علها تساعد المريضة في استعادة ذاكرتها"

"لا بأس فقط وقع لي هنا إقراراً باستلامها وبمسئوليتك عن تسليمها للمريضة"

"حسنًا.. كما تشاء.. هاك توقيعي"

***

"جو.. حسنا.. لن تصدقني لكن.."

قاطعه يوسف قائلًا وهو يشير إليه بالجلوس على أقرب مقعد:

"التقط أنفاسك أولًا ... ما الأمر؟!"

أخرج ألفين الصورة ومدّ يده بها ليوسف قائلًا:

"انظر بنفسك ما كانت تحمله معها!"

التقط منه الصورة وظلّ يحدق فيها صامتًا لوهلة، لم يعرف بمَ يفكر لكن أول ما خطر بباله كان:

"ألفين.. أهذه إحدى مقالبك السخيفة؟ هل صورت اللوحة وطبعتها لتنفذ تلك الخدعة؟! أقسم ..."

قاطعه ألفين قائلًا :

"أنا من يقسم أن تلك كانت بحوزتها، انظر للتاريخ المطبوع على الصورة، العام ٢٠٢٠! ألم يكن من الأوقع أن أضع تاريخًا قريبًا؛ هذا لو أن تلك خدعة؟"

"كيف يكون هذا ممكنًا بأي حال من الأحوال؟"

"لن نجد الإجابة سوى لديها!"

فنهض يوسف متوجهًا نحو الباب مشيراً لألفين أن يتقدمه قائلًا:

"ماذا ننتظر إذن.. أرني غرفتها -لو أنها حقا موجودة وليست نسج خيالك أو خدعة سخيفة-.. هيا"

***

ما إن دلفت الغرفة والتقت عيناي بعيناها؛ راودني شعور بالدهشة؛ لأنه حتى لحظة

ولوجي الغرفة كنت أظنه مقلبَا من ألفين، مزحة سخيفة من مزحاته، حتى الصورة

اعتقدت أنه التقطها بهاتفه م ثلًا للوحتي، ثم قام لاحقًا بتعديلها وطباعتها لكن.. ها

هي ذي تلك التي في اللوحة متجسدةً أمامي جالسةً على الفراش! تلك التي يُفترض

أنها زوجة نسختي المرسومة!

هاجس غريب انتابني بأن تلك ليست المرة الأولى التي ألتقيها

فيها، ليست المرة الأولى التي أغوص فيها في بحر عينيها هكذا،لكن.. ربما كان ذلك

بسبب تحديقي المستمر باللوحة، أو ربما بسبب تلك الأحلام الغريبة، التي لا أجد لها

تفسيراً منطقيَا حتى اللحظة! ...

تلك النظرة في عينيها، البريق الذي توهج فيهما ما إن وقع بصرها عليّ! وكأنما

تعرفني!

لغة جسدها أوحت لي أنها تقاوم أ مرًا ما بشدة، هي متوترة، لكن ربما ذلك بسبب

فقدانها ذاكرتها هذا كافٍ ليثير توتر أيًا من كان...

لم أعد أدري بما أفكر.. كيف للوحة أن تقلب تفكيري وتجعله مضطربًا إلى هذا الحد؟

...

كان ألفين أول من بدأ الحديث قائلًا :

" فحوصاتكِ كلها على خير ما يرام ، يتبقى فقط التقييم النفسي غدًا ، هذا دكتور ..."

فقاطعته هي قائلةً :

" "جو" ،... هل سيتابع حالتي؟!"

كلما حاولت وضع تبرير منطقي لما يحدث يأتي ما يضرب ذاك التبرير في مقتل، كيف لها أن تعرف اسمي؟!

نقل ألفين بصره بيننا في دهشة و من ثم قال :

" لم أخبرك باسمه، و حتى إن أخبرتك إحدى الممرضات فلن تقول أن اسمه (جو)!!"

تلعثمت لبرهة قبل أن تشير لمعطفي قائلةً:

" لم ألمح سوى الحروف الأولى من الاسم على البطاقة التعريفية"

وددت لو قلت لها"أنتِ كاذبة" لكنني بدلًا من ذلك قررت مواجهتها وحدنا، أستمع إليها، إلى تبريرها بشأن صورة جمعتني وإياها دون أن ألتقيها قط! سأستمع لكل ما ستقوله وحينها أحكم ما إن كان صدقًا أم كذبًا ...

فالتفت لألفين قائلًا :

" هلا تركتنا لبعض الوقت ألفين؟"

فأومأ برأسه إيجابا رافعًا حاجبيه و مشيراَ بيديه في الهواء بلا معنى بينما يغادر الغرفة ...

سحبت كرسيَا لأجلس مقابلها، و من ثم قلت ببطء :

"الحرف الأول من الاسم على البطاقة التعريفية (y) و ليس (J) ، لذا...

لا تتظاهري بمعرفة الاسم من خلال البطاقة "

شعرت أنها محتارة مترددةً تفتح فمها لتنطق، لكنها تعود لتطبقه مجددًا وكأنها تحاول انتقاء الكلمات بحرص، ومن ثم بدا في عينيها وكأنما حسمت قرارًا ما ومن ثم قالت :

"ربما كنت أعرفك سابقا"

" ألم تخبري ألفين بأنكِ فاقدة للذاكرة؟ أم أن تلك كذبة؟ و كيف لكِ أن تعرفينني، هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها"

" ليست الأولى .."

حاولت تمالك نفسي و من ثم قلت :

" ما الذي تعنينه؟!"

شعرت أنها ترددت قليلًا قبل أن تقول :

" لو أنني أخبرتك الحقيقة فلن تصدق منها حرفًا، الأمر يتخطى حاجز المألوف و المنطق "

أخذت نفسًا عميقًا محاولًا الاسترخاء و السيطرة على أعصابي ثم قلت:

" في الوقت الحالي أنا منفتح على الأفكار اللامنطقية، أنا مصغ لكل ما ترغبين في قوله "

ابتلعت ريقها ومن ثم قالت :

" لست أدري من أين أبدأ ..."

أخرجت الصورة من جيبي مناولها إياها قائلًا :

" فلنبدأ بتلك الصورة .. هلا فسرتِها؟! "

ابتسامة على جانب فمها ارتسمت مرتعشة وسرحت ببصرها لثوانٍ، وكأنما تستعيد ذكرى ما في عقلها، ومن ثم عادت تنظر إلي قائلةً:

" هل ألقيت نظرة على ظهر الصورة ؟"

هززت رأسي نافيا متعجبًا وأنا أقول :

" لا. هل كان عليّ تفقد الظهر؟! في الواقع الصورة وحدها كافية لتذهب بعقلي؛ لأنها تجمعني وإياكِ في حين لم نلتقِ قط، أضيفي أن تلك الصورة ذاتها معلقة في مدخل شقتي!... وخمني ماذا؟! رسمها فنان ما منذ ثلاثمئة عام على الأقل، من المؤكد أنك تتفهمين ما أشعر به الآن أليس كذلك؟!"

دفعت يدي الممدودة إليها بالصورة برفق وهي تقول بنبرة رجاء:

"فقط ألقِ نظرة، ربما سهل ذلك عليّ عملية اخبارك "

على ظهر الصورة كانت كلمات قليلة مكتوبة بخط يدوي ...

خط يدي أنا! أنا واثق من هذا !!

"إلى حبيبتي من الماضي ولطفلتي من الحاضر أتمنى أن نظل سويًا على الدوام في المستقبل ...

المحب لأبد الدهر(يوسف) .

السادس من أغسطس من عام ٢٠٢٠"

" أوليس هذا خط يدك أنت؟!"

ظللت محدقًا في الكلمات أمامي محاولًا استيعاب الأمر، لكن أنى لي فعل ذلك؟! هذا خطي وتوقيعي.....لكن التاريخ!! وما يشير إليه الإهداء، كيف ومتى تزوجتها وأنا لم ألتقها قط؟!...

شعرت برأسي يكاد ينفجر من كثرة ما تزاحمت فيه الأفكار، هل أحلامي ...؟! لا لا غير ممكن، رباه لا أستطيع إيجاد تفسير منطقي لما يحدث...

وكأنما سمعت ما يدور في عقلي، فأمسكت بكلتا يدي بين يديها -والغريب أنني لم أسحبهما كما كنت لأفعل في المعتاد- ومن ثم نظرت في عيني مباشرة قائلةً:

" يوسف... أعلم أن الأمر صعب التصديق، أ تفهم تشكك، لكن هناك تفسيراَ، غيرمنطقي بمعاييرك، لكن هذا لا ينفي عنه الواقعية "

كنت في هذه اللحظة مستعد ًدا لتقبل أي تفسير كان، المهم أن أخرج من تلك الحيرة، لم أشعر هكذا قط في حياتي!، لم أكن متخبطًا وغير قادر على التفكير هكذا! وددت لو هتفت بها قائلًا" ما الذي فعلته بي؟!"

رفعت رأسي ناظرًا إليها، متأملًا نظرة الرجاء في عينيها،وكأنها تتوسل لي لأسمعها، لأصدقها، ومن ثم قلت بعد كثير من الصمت لم أستطع خلاله صياغة ما يدور بذهني من تساؤلات:

" أي تفسير هو ذاك؟! أي تفسير يربط صورة التُقِطت في المستقبل بلوحة رسمت في ماضٍ، لم أكن قد ولدت فيه؟ كيف يمكن من الأساس أن يكون هذا التاريخ حقيقيَا، أشعر أنني في لعبة احتيالية كبرى، وأنتظر اللحظة التي يأتي فيها أحدهم قائلًا:(مفاجأة.. لقد انطلت عليك الحيلة) تماما كذاك الفيلم the game "

"أقسم لك أنها ليست حيلة"

وأخذت تسرد عليّ أحداثًا عجيبةً، أخذت تتكلم عن خطوط زمنية موازية، عن زمن موازٍ وجدت نفسها فيه في العام ٢٠١٦ للمرة الأولى، تعارُفنا -حسب قولها- وسفرها في الزمن مرارًا والتغييرات التي قامت بها، وعلاقتها بتوماس هدسون، انتهاءَ بطلبها رسم الدليل الوحيد -حسب إدعائها -على علاقتنا في الخط الزمني الثاني، وقفزتها الأخيرة في الزمن لتنهار قواها وتغيب عن الوعي أمام بوابة طوارئ المشفى، المشفى التي قصدت الوصول إليها لأنني فيها !

بتشكك قلت :

" إن كان ما تقولينه صحيحًا فلمَ لا أذكر أيا من ذلك؟!"

" لكل فعل رد فعل.. أنت أخبرتني هذا يومًا ما، أي تغيير في أحداث الماضي حتى وإن كان بعيدًا نسبيًا فلابد وأن يؤثر على الأحداث التالية، وينشئ خطًا زمنيًا جديدًا بدايته من لحظة التغيير، لذا فإن ذاكرتك لا تحمل سوى أحداث الخط الزمني الحالي، في بعض الأحيان قد تراودك ذكريات من خطوط زمنية لم تعد موجودة، قد تأتيك على هيئة لمحات خاطفة أو منام عابر ...

ألم تمر بأي من ذلك؟!"

كيف علمت بشأن أحلامي؟! أيعقل أن يكون ما قصته عليّ حقيقيًا ؟! كيف يمكن لهذا العبث أن يكون حقيقةً ؟!!

ساد الصمت مجددًا واحترمت هي ذلك، بدا لي و كأنها تترك لي برهة من الزمن؛ لأحاول فيها استيعاب كل هذا القدر من المعلومات التي تبدو لأي عاقل كخيال جامح لأحدهم، أشعر و كأنني في فيلم أو قصة ما نُسِجت في عالم خيالي لا يمت للواقع بصلة لكن ...كلماتها الأخيرة عن اللمحات والأحلام أثارت في نفسي ميلًا لمنحي فرصة لخوض التجربة، محاولةً للاقتناع، لم أكن لأصدق بتلك البساطة، تلك أشياء يُسمع عنها، ونراها في الأفلام وحسب، ليس على أرض الواقع..

لذا فقد وجدتني أقول:

" سأسلم جدلًا بفرضية صحة ما قصصته عليّ، رغم أن جانب العقل يرفضه، لكن القلب يود خوض التجربة .. ربما هناك رابط ما مشترك يجمعنا، ربما تقابلت أرواحنا سابقًا قبل بدء الخليقة، سأمنح نفسي فرصة أتعرف إليك فيها، لكن لا تأخذي هذا على أنه وعد بأي شيء"

ابتسمت وتهلل وجهها فرحا قائلةً :

" يكفيني هذا في الوقت الحالي، يكفيني هذا"

ردة فعلها أشعرتني ... بالسعادة! كانت متحمسةً وكأنها واثقة من أن تلك الفرصة ستقودني للتصديق من يعلم.. ربما..

تمت

تابعونا على الهاشتاج الخاص بنا

#أدباء_٢٠٠٠

وعلى الصفحات الرسمية للدار

https://www.facebook.com/Odabaa2000/

https://www.facebook.com/groups/1686790618200616

https://www.facebook.com/odabaa2000.Publishinghouse

